سرعة البداهة

سرعة البداهة في الرجل موهبة من الله ﷻ يمنحها من يشاء، وخاصة إذا سُخِّرَت في الخير.

ومن مواقف سرعة البداهة ما ذكره أهل الأدب أن أحد الشعراء دخل على الأمير الْمُهَلَّبِي في العراق، وكان الْمُهَلَّبِي الوزير مَهِيبًا غَضُوبًا عَبُوسًا، فدخل عليه الشاعر وقت المساء، وأراد أن يقول: كيف أمسيت أيها الأميرُ؟ فغلط الشاعر من الرهبة وخوف الموقف، فقال: كيف أصبحت أيها الأمير؟ فقال: هذا مساء أو صباح؟! فأطرق الشاعر قليلاً، ثم رفع رأسه وقال:

صَبَّحْتُهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَقَالَ لِي: مَاذَا الصَّبَاحُ؟ وَظَنَّ ذَاكَ مِزَاحَا
فَأَجَبْتُهُ: إِشْرَاقُ وَجْهِكَ غَرَّنِي حَتَّى تَبَيَّنْتُ الْمَسَاءَ صَبَاحَا

وعلى هذا كانت أجوبة علي بن أبي طالب أبي الحسن، إذ يقولون: كان من أسرع الناس جوابًا؛ لسرعة بداهته. «**قَالَ لَهُ رَجُلٌ: لِمَاذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَاخْتَلَفُوا عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: لِأَنَّ رَعِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَنَا وَأَمْثَالِي، وَرَعِيَّتِي أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ. قَالَ: أَنْتَ خَيْرُ النَّاسِ. فَقَالَ: أَنَا فَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ وَدُونَ مَا تَقُولُ**». و«**قِيلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةُ الشَّمْسِ يَوْمًا. قِيلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْشِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ**». وأهل الأدب يذكرون أن أبا العلاء المعري ذهب إلى الشريف الرضي في مجلسه، وكان الشريف الرضي لا يحب المتنبي، والمتنبي هو شيخ أبي العلاء المعري، فوقف عنده، وذكر شعر المتنبي، فهوَّن الشريف الرضي شعر المتنبي ومن استشهاده ومن قوة شاعريته، فقال: أيها الأمير، لا تُهَوِّن من شعر المتنبي؛ لو لم يكن له إلا قصيدة:

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكُ أَوَاهِلُ

لكفى.

قال الأمير: أخرجوه من مجلسي. فقال الناس للأمير الشريف الرضي: ما قال أبو العلاء سوءًا قال: بلى، هو استشهد بهذه القصيدة مع العلم أن للمتنبي أحسن منها، لكن قصده آخر القصيدة، وهو قوله:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّيَ كَامِلُ

فانظر كيف استحضر القصيدة سريعاً، وانتزع هذا البيت؟! وهذا من أجمل الأبيات، فإذا ذمَّك إنسان قليل قدر، فهو دلالة على سمو قدرك، وارتفاع كعبك في المكارم.

ثم ذكروا أن أبا جعفر المنصور كان من الأذكياء وصاحب أدب، ذهب إلى مدينة الرسول ﷺ وهو ملك، فقال: من يطّلعنا على آثار الصحابة ﷺ، وعلى أسماء بيوت المهاجرين والأنصار؟ فأتوا بشيخ كبير - بالأجرة - مُطَوِّف، وقال له أبو جعفر: أخبِرْني - فقط - باسم صاحب البيت، ولا تُكْثِر علي. وذلك لأنه لا يحتمل كثرة الكلام، فأخذه من الصباح إلى المساء، يقول: هذا بيت عمر ابن الخطاب، هذا بيت عثمان، هذا بيت سعد بن معاذ، هذا بيت حسان بن ثابت ﷺ. ونسوا أن يعطوه الأجرة، وفي اليوم الثاني طلب الشيخ، فقال: ائتوني بالشيخ علي. فأتوا به، فأخذ يدل أبا جعفر ويصف له البيوت، حتى أتى إلى بيت الأحوص الأنصاري الشاعر، فقال: هذا - يا أمير المؤمنين - بيت الأحوص الأنصاري الشاعر الذي يقول:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي أَتَعَزَّلُ ... أَثَرُ الْعِدَى وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ

إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ وَإِنَّنِي ... قَسَماً إِلَيكَ مَعَ الصُّدودِ لَأَمِيَلُ

فوجم أبو جعفر، وتعجب لماذا استشهد الرجل بهذه الأبيات؟ فقال: أكملوا القصيدة. فأكملوا القصيدة، فإذا في آخرها:

وَأُرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ ... مَذِقُ الكَلامِ يَقُولُ مَا لا يَفْعَلُ

قال: ما أعطيتموه الأجرة؟ قالوا: لا. قال: الآن هو يطلب الأجرة في القصيدة والاستشهاد، وهذا من هذا.

ثم إن أبا تمام من أشهر الشعراء بلا شك ويأتي بعد المتنبي، وقف عند المعتصم ينشده قصيدته التي يقول في مطلعها:

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَأْسِ ... نَقْضِي ذِمَامَ الأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ

إلى أن يقول:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتَمٍ ... فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

فقام الطبيب الكندي- وكان الفيلسوف وكان حاضراً- فقال: ما زدت على أن وصفت أمير المؤمنين بأجلاف العرب! فوجم قليلاً أبو تمام ثم وردَّ الأبيات:

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً فِي النَّدَا وَالْبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَ لِنُورِهِ ... مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

فحُمِدَ فِعْلُهُ في ذلك، فقال الطبيب الفيلسوف: هذا لا يعيش طويلاً. وفعلاً مات أبو تمام وعمره (٤٦ سنة)؛ قال: لأن عقله يأكل جسمه. فدائماً الأذكياء تجد عندهم من الاندفاع، ومن حدة الخاطر، وجودة الرأي ما يؤثر على أجسامهم في الغالب.

وذكروا- أيضاً- أن أحد الوزراء كان في مجلس، فقال لأحد الشعراء: من يُكمل لي بيت شعر يبدأ بكلمة وينتهي بنفس الكلمة؟ قالوا: أعطِنَا الكلمة أيها الوزير. قال: سِمْسِمَة. فقال الشاعر الأول:

سِمْسِمَةٌ فِي الْعِلْمِ تُحْمَدُ بِهَا ... وَاحْمَدْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سِمْسِمَةْ

أي: اطلب علامة تُحمَد، وتشكر فيها في العلم، واحمد الله ﷻ ولو أعطاك سمسمة. وفي الآخر قال: ملأمة. فقال الثاني:

مَلْأَمَةُ الْوَكْسَاءِ فِي خِدْرِهَا ... أَلْأَمُ مِنْ حُرٍّ أَتَى مَلْأَمَةْ

الملأمة: الجارية الغبية في خدرها، أشد بخلاً وأشد ملأمة من الحر الذي يأتي ملأمة؛ أي: ما يُلام عليه من الأفعال الشنيعة:

وَالْمَحْ كَمَالَ الْفَضْلِ حَتَّى تُرَى ... قَاضٍ يُدِيرُ الْحُكْمَ فِي الْمَحْكَمَهْ

قال: ألجم. فقال:

أَلْجِمْ جِمَاحَ النَّفْسِ عَنْ غَيِّهَا ... فَغَيُّهَا يُذْهِبُ بِالْجُمْجُمَهْ

وهكذا، وهذا من سرعة البداهة التي تحضر لبعض الشعراء، وهي موهبة، فمن سخرها في الخير أُجِر على ذلك.

وقرأت في (سفينة الأدب والتاريخ) أن أحد الأعيان والوجهاء كان مشهوراً بأكل الربا، وهو يعرف: السحت. وكان كذوباً، فدعا أناساً من الأدباء وبعض الأعيان للغداء، وفُرِشت المائدة أمامهم، وجلس عندهم- وهو لا يتغدى- ويحدث لهم بقصص من الأوهام والخيالات والخرافات وهم يأكلون، فهم يرون أن أكلهم من الربا وهو يتكلم بالكذب، ثم صاح بأحد الأدباء، فقال: كيف أنتم يا فُلانُ؟ قال الأديب: سمّاعون للكذب، أكّالون للسحت. وهذا في كتاب الله ﷻ يقوله ﷻ عن أعدائه اليهود: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وهذا من سرعة البداهة التي لا تتأتى لكل أحد.

قرأت أن أحد القادة المشهورين مرَّ في مدينة بسرداب، والسرداب مثل الشارع الضيق. وفي أحد جنبات السرداب جزار ولا يعلم أن القائد الشجاع سوف يمر، وكان قد ذبح شاة، وأراد أن يرمي ببقية الشاة، مثل: الكراع، والرأس. وعليها دم، ويريد أن يرميها في الشارع، ولم يعلم أن هذا القائد يمر بموكبه في هذه اللحظة، فمر، فرمى، فوقع بعض الدم على جسم هذا القائد وعلى ثيابه وعلى عمامته، وكان بطاشاً ظلوماً غشوماً، وأراد أن يبطش به، فقال أحد الأدباء وكان معه: أيها القائد، يقول أبو الطيب:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى ... حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

قال: عفوت عنه؛ لأجل هذا البيت. وهذه من قصيدة مشهورة لأبي الطيب، مطلعها:

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لا تُعْلَمُ ... عَرَضاً نَظَرتُ وَخِلتُ أَنِّي أَسلَمُ

ومنها:

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ ... وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

إلى أن يقول:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَّى يُـرَاقَ عَلَى جَـوَانِبِـهِ الـدَّمُ

أي: إن المجـد العالـي يحتاج إلى نضـال وإلى كفاح وإلـى مدافعة، حتى إلى تضحيـات بالغيـر؛ ليستقيم الأمر، لكـن انظر إلى استشهاد هـذا الأديب في هذه المناسبة، حتى أعتق هذا الجزار من القتل، أو من الأذى.

وذكـر الإمام العلامـة الكبير ابن حزم الظاهـري، قال: كان أبـي مُستشاراً فـي الديـوان عند أحد ملوك الأندلس، قـال: فأتى عدوّ له يراجـع أبي في مسألة، فكتـب خطابـاً لأبي، وكتب في الخطـاب- وهذا من قلة الحيلة وقلـة الذكاء- قول أبي الطيب:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَـدُوّاً لَـهُ مَـا مِـنْ صَـدَاقَـتِـهِ بُـدُّ

فأنـت تحتاج إلى هذا الوزيـر، وتريد أن تراجعه في أمـر، فتكتب هذا البيت الذي مقصـوده: إننا مضطرون لك وأنت عدو لنا، لكنا حملتنا الضرورة والحاجة لأن نصانعـك، ومـا كان ينبغـي أن نفعل ذلـك. فمن ذكاء والد ابـن حزم أن قلب اللفظ، فقال:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى صَـدِيقَاً لَـهُ مَـا مِـنْ عَـدَاوَتِـهِ بُـدُّ

أي: إنـك كنت صديقاً قبل، لكنك اضطررتنا الآن، وأغضبتنا إلى أن نجعلك عـدواً بالغصـب والقوة. وهذا يفعله بعض الناس من الْهَوَج، بـأن يستخدم بعض العبـارات التي لا تجدي، وقـد تكلفه روحه، أو تكلفه موقفـه أو مصلحته، حتى إن الله ﷻ يقـول في كتابه العزيـز: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ ﴾ [الإسراء: ٥٣]. أي: يختارون من العبارات اللينة الموفقة التي تدعو إلى الوفاق، وإلى المسامحة، أحسن من اختيار العبارات التي تُزعج.

ومن هذا الباب أن امرأة كانت مارَّةً في مجلس في الكوفة، وفيها قوم يظهر أنهم من بني نُمير، فنظروا إليها، فالتفتت إليهم، فقالت: قاتلكم الله يا نُمير، أنتم لا أخذتم بقول الله ﷻ ولا بقول جرير، فالله ﷻ يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. وجرير يقول:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلاَ كَعْبَاً بَلَغْتَ وَلا كِلابَا

انظر لها كيف استخدمت الأمرين، واستشهدت في الحال المناسب بهذا الاستشهاد المناسب في وقته؟! وهذا من الذكاء المفرط.

ذكر الذهبي عن أبي مسلم الخراساني القائد المشهور، وهو من القادة الكبار، الذي نقل دولة بني أمية إلى بني العباس. وكان من الذكاء على نحو عجيب، قُتِل وَعُمرُه (٣٩ سنة) كان يخطب بالناس في يوم الجمعة، وعليه عمامة سوداء، فقام أحد الناس- وهذا طُفَيلي متعجل- وقال في المسجد: لماذا تلبس السواد، وقد نُهِينا عن لبس السواد؟! والسواد هو شعار الدولة العباسة، فالتفت أبو مسلم إلى الرجل وقال- وهو مرتجل وما قطع كلامه: حدثني فلان، عن فلان، عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ». وقال: يا غلام، اضرب عنقه. فقتله أمام الناس وأتى بالحديث، فعجب الناس من سرعة بداهته، وحفظه للحديث وهو قائد عسكري وقائد سياسي، وأمر بالقتل في الحال!

ومن هذا الباب ينبغي- أيضاً- ألاتُستخدم سرعة البداهة في النيل من الناس والتعرض لهم والإضرار بهم؛ لأن من عنده جرأة في الحديث أحياناً إذا لم يكن عنده تقوى، ولم يكن عنده وازع ديني أسرع بالكلام فيما يشتهي، ولذلك كانت سرعة بداهة الأخيار والأبرار فيما يرفع وفيما يُقِيمُ، وأذكر من المعاصرين أحد العلماء، ذهب إلى دولة من الدول- وهي دولته، لكن منعته من الدخول فيها؛ لأمر سياسي- فوصل المطار وأُمِر أن يُعاد من المطار، وأن يخرج خارج الوطن، فلما

رجع إلى أصحابه قالوا: كيف وجدت المدينة التي ذهبت إليها؟ قال: مُلِئَت حرساً شديداً وشُهُبًا. وهذا من أسلوب القرآن الكريم.

وعلى سبيل اختيار الألفاظ حدثني أحد الأدباء في الرياض أنه قرأ أن هتلر لما اتجهت جيوشه إلى بلغراد، متجهة إلى موسكو، وفي تلك المدة ألقى خطاباً عالمياً أُذيع على العالم، فطلب أن تُختار له كلمة من الكتب السماوية: القرآن، أو الإنجيل، أو التوراة، تملأ الجو والمكان والزمان، وكان عندهم هناك أديب عراقي لاجئ في ألمانيا، فأتاه الخبر، فقال: أرى أن هتلر يبدأ خطابه الليلة بقوله ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. هذا الكلام الذي يملأ الجو ويملأ المكان ويملأ الزمان، فبدأ بهذا الخطاب، ولذلك أسلوب القرآن عجيب، حتى الجن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]. فهم ذهلوا وعجبوا، حتى الجن سمعوا هذا الكتاب، فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً. فإذا عُلِمَ هذا، فهذه بعض المواقف الشاعرية، وقد قرأت أن بعض الأدباء كان جالساً، فأقبل عالم - وبعض العلماء يرى عدم القيام، وهذا رأي من المذاهب - فقام الأديب له، فقال العالم: اجلس، لا يجوز القيام. وهذا على مذهبه، فقال الأديب الشاعر:

قِيَامِي - وَالإِلَهِ - إِلَيْكَ حَقٌّ ... وَتَرْكُ الْحَقِّ مَا لا يَسْتَقِيمُ
وَهَلْ رَجُلٌ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ ... يَرَاكَ تَسِيرُ إِلَيْهِ وَلا يَقُومُ

فانظر كيف حضر له مثل هذا المعنى، ومثل هذه الأبيات في هذا المكان، والمواقف في ذلك كثيرة ولكن السلف الصالح - ذَكَرُوا عنهم - أنهم ما كانوا يستخدمون مثل هذا؛ لأنهم يخشون أن يكون شيء من المباهاة، حتى يقول الحسن: أترك بعض الكلام؛ خشية الْعُجْب. أي: يترك بعض الاختيارات والاستشهادات؛ خشية من العجب. وبعضهم يتركه خشية من العين، فإن إياساً القاضي كان من أذكى الناس، ولذلك كان يُخشى عليه من العين؛ لتسديده في القضاء، وتسديده في الإجابة. ومن أكثر من كان يجيب شريك القاضي؛ قال له رجل: من عندنا خرج العلم. أي: من الكوفة. قال: ثم لم يعد إليكم أبداً.

خشبة الموت

عند الأدباء مصطلح اسمه: خشبة الموت، وهي النهاية للإنسان، أو الصلب له، أو القتل أمام الجماهير. وعادة ما يُفعل لمن كان ذا مكانة أو مشهوراً أو زعيماً أو جواداً أو بطلاً. ومن سادة مَنْ فُعِلَ به وصُلِبَ أمام العالم عبد الله بن الزبير «ابن حواري الرسول ﷺ، صلبه الحجاج الظالم، حتى مرت أسماء بنت أبي بكر «وكانت عمياء، وأخبروها أن ابنها مصلوب، فقالت: «**أَمَا آنَ لِهَذَا الْفَارِسِ أَنْ يَتَرَجَّلَ**». ومر التاريخ بروايات على من صُلِبُوا، ومن أشهرهم وأكثرهم اعتباراً في الأمة،

وذيوعاً في التاريخ ابن بقية الوزير، وكان وزيراً عباسياً ذا كرم ونجدة ومروءة، حتى إنه تكفل لمن يحفظ القرآن بجائزة ثمينة ببغداد، وكان ينفق على العلماء ويُطعم المساكين، ومرَّ جَدْبٌ في بغداد وقحط، فأخذ الأضحية من ماله وجعلها لأهل بغداد، وقد آتاه الله مالاً، لكن ليس كل إنسان آتاه الله مالاً يكون جواداً، ولكن إذا اجتمع الجود والمال فهو الكمال، وهذا الذي حصل لابن بقية، وكان الملك في تلك المدة عضد الدولة فن خسرو الديلمي، وكان باطشاً قوياً وهو من جبابرة الملوك، وهو المقصود الذي مدحه المتنبي بقوله في قصيدة طويلة:

فِداً لك من يُقصِّر عن مَداكا ... فما ملكٌ إذاً إلاَّ فِداكا

أَرُوحُ وَقَدْ خَتَمْتَ عَلَى فُؤَادِي ... بِحُبِّكَ أَنْ يَحُلَّ بِهِ سِوَاكَا

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ ... تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

عضد الدولة مدحه المتنبي- أيضاً - في قصيدة أخرى، واسمه فَنَّ خسرو يقول:

فَمَا يُسْمَى كَفَنَخُسرو مُسمّى ... وَلا يُكْنَى كَفَنَخُسرو كَانِي

يقول: لا يسمّى بمثل اسمك أحد، ولا يُكنى بمثلك أحد.

الشاهد أن هذا الملك غضب وأصابته الغيرة من الوزير ابن بقية؛ لما يمتاز به من كرم وجود وغيرهما من الصفات الطيبة، فاحتال عليه، حتى وضعوه للفيلة في بغداد وقُتِلَ وصُلِب، في ليل بطيء النجوم، ليلٍ صعب على أهل بغداد وعلى أهل العراق، وجاء الخبر في الصباح مع الأذان: قُتِل ابن بقية مع الأذان وهو مصلوب عند باب الطاق. وباب الطاق مدخل بغداد، وهناك خشبة الموت صُلِب عليها ابن الوزير مُسمّر اليدين ونصفه الأعلى عارٍ، والرياح تلفح وجهه، وهو منتصب كأنه علم وكأنه عمود، وجاء الخبر أبا الحسن الأنباري المحدث والمفسر الأديب في المسجد، فقال لطلابه: قوموا بنا؛ وفاءً للذمة وإعادة الحق والخير لفاعله

ومسديه ابن بقية، فذهب ووقف أمام الجثمان وإذا بابن بقية على حاله، والناس مصطفون أمام ابن بقية، هذا يدعو وهذا يبكي وهذا يشير بيده وهذا يترحم عليه، وهذا ينظم قصيدة، فسَلَّمَ أبو الحسن الأنباري، والتفت إلى ابن بقية وهو مصلوب مقتول، فقال:

عُدُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

فَحَوَّلَ السلبيات إلى إيجابيات والخسائر إلى أرباح، فقال: حتى موتك مميز، فما مت مثل الناس وما دفنوك، أي إنك رفضت أن تُدْفنَ إلا أن تكون علواً في الجو، مثل حياتك يوم أن كانت قوية مرتفعة عالية.

عُدُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ - حَوْلَكَ - حِينَ قَامُوا ... وُفُودَ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّلاتِ

كأنهم يريدون أن يأخذوا الصلات والأعطيات، مزدحمين، مثلما ازدحموا عند قصرك في حياتك.

كَأَنَّكَ وَاقِفٌ فِيهِمْ خَطِيباً ... وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلاةِ

حَتَّى إن يديه لما كانتا مسمرتين يقول: كأنك أنت الآن تُحَيِّينَا وتحتضننا وترحّب بنا.

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ؛ احْتِفَاءً ... كَمَدِّهِمَا إِلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ

ويقول: هم ما دفنوك في التراب؛ لأن القبر لا يتسع لمكارمك، ولا لجودك.

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الأَرْضِ عَنْ أَنْ ... يُوَارُوا فِيهِ تِلْكَ الْمَكْرُمَاتِ
أَصَارُوا الْجَوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاضُوا ... عَنِ الأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ

يقول: الرياح صارت أكفاناً لك، وَتُصَبِّحُ عليك، وَتُمَسِّي عليك بالخيرات، ثم يقول:

لِعِظْمِكَ فِي النُّفُوسِ تَبِيتُ تُرْعَى ... بِحُرَّاسٍ وَحُفَّاظٍ تُقَاتِ

يقول: أنت عظيم مَهيب؛ حتى وأنت ميت يخافونك والعسكر حولك. إذ كان العسكر حوله، حتى لا ينزلوا جثمانه من على الخشبة. فسبحان الله! هؤلاء يحرسونك ويخافونك، حتى وأنت ميت.

وَتُوقَدُ حَوْلَكَ النِّيرَانُ لَيْلاً ... كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ
وَمَا لَكَ تُرْبَةٌ فَأَقُولُ تُسقَى ... لأَنَّكَ نُصْبُ هَطْلِ الهَاطِلاَتِ

يقول: لو أنهم دفنوك في التراب لقلت: سقى الله ترابك الغيث. كيف لا تربة توارى فيها؟! لأنك نصب هطل الهاطلات، اقتربت من السحاب.

عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَغْنُو ... بِتَبْرِيكٍ غَوَادٍ رَائِحَاتِ

ثم يقول: والله إني مقصر في حقك. أو بعد هذه القصيدة تقصير يا ابن الأنباري؟!

وَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ قِيامَ حَقٍّ ... عَلَيْنَا بِالْحُقُوقِ الْوَاجِبَاتِ
مَلأْتُ الأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي ... وَنُحْتُ بِهَا خِلافَ النَّائِحَاتِ

إلى آخرها، وهي اثنان وعشرون بيتاً، وما قيل مثلها في المراثي، وفرّ بعد هذه القصيدة إلى ملك حلب، وأرسل عضد الدولة للبحث عن ابن الأنباري، فما وجدوا غير هذه القصيدة، فقال: اقرؤوا عليّ القصيدة - وعضد الدولة هو القاتل - فقرؤوا عليه هذه القصيدة، فسالت دموعه، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لوددت أني قُتِلت وَصُلِبْتُ، وقيلت فيّ هذه القصيدة. لأنها مما يخلده الدهر قوة وبلاغة وأداءً، هذه القصيدة التي يسميها:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ: أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

وأعظمُ فنٍّ أثَّرَ فيه العرب هو فن الرثاء، وكتبوا فيه أحسن شيء، حتى يقول جرير: **لَوْ تَرَكَنِي الْفَرَزْدَقُ لَأَبْكَيْتُ الْعَجُوزَ عَلَى شَبَابِهَا.**

فما بكى العرب، مثلما بكوا الإنسان إذا مات، وبكوا الشيب إذا افقدوا الشباب، أو بكوا الشباب إذا دلف عليهم الشيب.

وأبو تمام من المجيدين من شعراء العربية على الإطلاق، ذلك أن محمد بن حميد الطوسي البطل كان مجاهداً في عهد المعتصم، جاهد جهة الروم وحضر المعركة وقاد الجيش، وقال: احموا ظهري. فأخذ المسلمون يحمون ظهره وأخذ يستبسل في سبيل الله ويقاتل وتتكسر السيوف في يده، وفي الأخير أتته كتيبة وشاكوه بالرماح، ولم يفر ولو خطوة، فوقع أسيراً بعدما أصبحت ثيابه كلها حمراء من الدم، فأتى الخبر أبا تمام فقال قصيدته، حتى إن المعتصم لما سمع قصيدته قال: ما مات من قيلت فيه هذه القصيدة، وما زال حياً. فقال أبو تمام:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ[1]

تُوُفِّيَتِ الآمَالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفْرُ

أي: لا تتأملوا شيئاً، فقد انتهت الطلبات؛ لأن محمداً كان شجاعاً، ولم يعد للمسافرين رغبة في أن يسافروا لأحد يطلبون الجود فقد توفي محمد، فلا تسافروا.

فَتًى كُلَّمَا فَاضَتْ عُيُونُ قَبِيلَةٍ ... دَمًا ضَحِكَتْ عَنْهُ الأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

ثم يقول في المعركة:

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى ... لَهَا اللَّيْلُ إِلاَّ وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

(١) قوله: كذا. أطلقها مدوية في الفضاء، تملأ الزمان والمكان.

أي: في الجنة. صارت حمراء بالدم وبعد ساعة مع الغروب وإذا هو في جنة النعيم، فنسأل الله أن يغفر لكل أموات المسلمين.

ثَوَى طَاهِرَ الأَرْدَانِ لَمْ تَبْقَ بُقْعَةٌ ... غَدَاةَ ثَوَى إِلاَّ اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ

يقول: لما ثوى كل بقعة وكل أرض تقول: يا ليته دُفِن فِيَّ. ثم يقول:

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ صَعْبَاً فَرَدَّهُ ... عَلَيْهِ حِفَاظُ الْمُرِّ وَالْخُلُقُ الْوَعِرُ

وَنَفْسٌ تَعَافُ الذُّلَّ حَتَّى كَأَنَّهُ ... هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَوْ دُونَهُ الْكُفْرُ

فَأَثْبَتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْهَوْنِ رِجْلَهُ ... وَقَالَ لَهَا: مِنْ تَحْتُ أَخمصك الْحَشْرُ

أي: في المعركة. إلى أن يقول:

لَقَدْ مَاتَ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ مِيتَةً ... تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

هذه هي المراثي التي يقدمها العرب، حينما يرثون جواداً أو خَيِّراً، وهذا لا يحصل للإنسان إلا بعدما يقدم تاريخاً مجيداً من العمل الصالح، من الكرم ومن البر ومن الحلم ومن نفع الآخرين، فيكتسب هذا الثناء، حتى إن المتنبي يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي، وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وَخُضُوعُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وهذا من أجمل ما قاله المتنبي في قصيدته التي يقول لأبي شجاع فيها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

ثم يقول في القصيدة:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمُفْتَخِرٍ ... فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَلا دَالُ

فهنا يقول: إن قيمة الإنسان وعمره الثاني، كما يقول ابن دريد:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ ... فَكُنْ حَدِيثَاً حَسَنَاً لِمَنْ وَعَى

أنت - أصلاً - بعد موتك حديث، والله ﷻ لما أهلك أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: ١٩]. أصبح أحاديث في الأماكن، فإما أن تكون له أحدوثة طيبة أو أحدوثة سيئة - أجاركم الله - فحاول أن يكون لك ذكر حسن عند جيرانك وإخوانك وأصدقائك؛ لأنه كما في الحديث الشريف: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ». ومن شهد له المؤمنون بالخير فهو خَيِّرٌ ومن شهدوا له بالسوء فهو سيئ، حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. هذا وهو نبي معصوم مرسل من عند الله ﷻ، يقول: يا ربِّ، أسألك أن يكون لي ذكر حسن عند الناس، فيذكرونني بالخير. لأنهم إذا ذكروك بالخير دعوا لك واحتفوا بك وصار لك وفي ذريتك تاريخ ومجد، وهذا يكسبه الإنسان بعمله الصالح وبعلمه النافع ببذله وعطائه وأخلاقه ورحابة صدره، وبمروءته وبشيمه، وما ذلك على الله بعزيز إذا وفق الله ﷻ العبد إلى ذلك.

نعود إلى المراثي التي رُثِيَ بها الناس، وهي كثيرة- على كل حال-ومن بعض المقطوعات التي قيلت في الرثاء:

يا لَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرَاً بِخَارِجَةٍ ... فَدَتْ عَلِيّاً بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

ومثل سلم بن سعيد بن قتيبة أحد أحفاد قتيبة بن مسلم القائد المشهور حفيد قاضي خراسان، وكان كريماً جواداً منفقاً مبادراً، توفي فقال أحد الشعراء فيه:

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حَيْثُ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ... وَلا مَغْرِبٌ إِلاَّ لَهُ فِيهِ مَادِحُ

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ ... عَلَى الأَرْضِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّحَاصِحُ

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الأَرْضِ ضَيِّقٍ ... وَقَدْ كَانَ-أَحْيَانَاً-تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ

سَأَبْكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغُضْ ... فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجِنُّ الْجَوَانِحُ

إلى آخر ما قاله، وهي من أجمل ما قيل في هذا الأدب الذي ذكره هذا الشاعر المجيد من الشعراء.

ورُثِي الخلفاء والأئمة والعلماء، ومن أحسن ما قيل في ذلك الباب قيس بن عاصم سيد حلماء العرب، الذي وفد على رسول الله ﷺ، وفيما يُروى في السيرة أنهُ رضي الله عنه لما قال: «**أَوْصِنِي يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَكَ قَرِيناً تُدْفَنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّت، وَيُدْفَنُ مَعَكَ وَهُوَ حَيٌّ وَهُوَ عَمَلُكَ، يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَ الْعِزَّةِ ذِلَّةً وَمَعَ الْغِنَى فَقْراً وَمَعَ الْقُوَّةِ ضَعْفاً**». لما تُوُفِّي قيس يقول شاعر بني تيم:

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ -قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ- وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

تَحِيَّةَ مَنْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً إِذَا زَارَ عَنْ قُرْبٍ بِلادَكَ سَلَّمَا

وَمَا كَانَ قَيْسٌ مُوْتُهُ مَوْتَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

بالمناسبة لما توفي عبد الملك بن مروان حضر أبناؤه الأربعة: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. يقول ابن خلدون: «الناس على دين ملوكهم في الغالب وعلى دين خلفائهم». لأن مسيرة الوليد أنه كان معمارياً مهتماً بالعمار وهو الذي وسع المساجد، فاشتغل الناس بالعمار، وأما سليمان فكان مشتغلاً بالموائد، يحب الطعام والشراب كثيراً، فاشتغل الناس بالأكل والشراب، وأما هشام فكان صاحب دواب فغلا سعر الحيوانات والدواب في ذلك الوقت، وعمر بن عبد العزيز كان زاهداً ورعاً عالماً، فاشتغل الناس بالعلم وزهدوا بالدنيا، فالشاهد أنهم أتوا يدفنون عبد الملك، فقال هشام:

وَمَا كَانَ قَيْسٌ مُوْتُهُ مَوْتَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

قال ابنه الوليد ولي العهد: كذبت- قاتلك الله- بل أبقى لك الله ما يسوؤك. يعني تعريضاً بأخيه ولي العهد. فقصدي من هذا أن المراثي قد تقدم في سجل الأموات، متى ما أحسن هذا الميت عمله، وبالمقابل فمنهم من يُسب وهو ميت، ولذلك ينبغي أن يكون الأدب رسالة حق، وأن يُقدم، لا رسالة لكسب عرض من الدنيا، ولا يكون فيه تزوير شهادة فيها مقت، إنما يكون الإنسان صادقاً في شعره

صادقاً في قوله، صادقاً في كلامه، أذكر أنَّ نزار قباني الشاعر المعاصر قال يرثي أحد الزعماء لما مات، فقال فيه قصيدة من أجمل ما قيل:

فبُعدكَ لَوْعَةٌ وَرَوْضُكَ أَخْضَرُ ... وَذِكْرَاكَ عُصْفُورٌ مِنَ الْقَلْبِ يَنْقُرُ

مَلأْنَا لَكَ الأَقْدَاحَ- يَا مَنْ بحبّه- ... سَكِرْنَا كَمَا الصُّوفِيّ بِالْحُبِّ يَسْكُرُ

شَهِدْنَا وَفَكَّرْنَا وَشَابَتْ دُمُوعُنَا ... وَشَاخَتْ لَيَالِينَا وَمَا كُنْتَ تَحْضُرُ

تَأَخَّرْتَ عَنْ وَعْدِ الْهَوى -يَا حَبِيبَنَا- ... وَمَا كُنْتَ عَنْ وَعْدِ الْهَوَى تَتَأَخَّرُ

أُحِبُّكَ لا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبْوَتِي ... يُفَسِّرِ مَاذَا وَالْهَوَى لا يُفَسَّرُ

obeikandl.com

شعر السجون

أقدار من الله ﷻ يُقدِّرُها على بعض الناس، فيدخلون السجن، والسجن بيت الوحدة، فالإنسان في السجن لا هو ميت فيُنعى ولا هو حي فيُرجى، قد دخله زعماء وعلماء وأدباء وحكماء، كلٌّ عبَّر بطريقته، وأفضل من دخله يوسف عليه السلام فإنه من شدة الكرب في السجن يقول لمن معه: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أي: لا تنسنا من الشفاعة عند الملك؛ فإنا تعبنا من السجن. هذا هو معنى الكلام، فهذا من شدة السجن، والرسول ﷺ هُدِّدَ به من الكفار ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ويثبتوك، أي: يسجنوك.

وأذكـر أن البرامكة ممن نُكِب نَكْبة ساحقـة ماحقة في التاريخ العباسي، لما عـدا عليهم هارون الرشيد- سامَحَه الله- ووضعهم في السجن، حتى يقول يحيى ابـن خالد البرمكي (أحدهم) لمـا رأى السجان واقفاً عند الباب، وكانوا قبل في قصـور وفي نعيم، وكانت الدنيـا تحييهم، وكانت الجماهير تحتشد عندهم، وكان الذهب يُصبّ على أقدامهم، ثم وُضِع في غرفة مغلقة، فقال يتمثل بهذه الأبيات:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا ... فَلَسْنَا مِنَ الأَمْوَاتِ فِيهَا وَلا الأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمَاً لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا
وَنَفْرَحُ بِالرُّؤْيَا فَجُلُّ حَدِيثِنَا ... إِذا مَا تَحَدَّثَنَا الْحَدِيثُ عَنِ الرُّؤْيَا
فَإِنْ حَسُنَتْ كَانَتْ بَطِيئَاً مَجِيئُهَا ... وَإِنْ قَبُحَتْ لَمْ تَنْتَظِرْ وَأَتَتْ سعيا

فليس عندهم وكالات أنباء ولا مجلات ولا صحف ولا صديق ولا زيارة.

فهـذا مـن التشاؤم، ومثلُ هـذا التشاؤم ذكر الجاحظ في كتابـه (البغال) أن أحـد الأمـراء هنأه أهل بغداد، فقالوا: هنيئاً لك أنك في العراق أميرٌ. فقال: أنتم لا تعرفون الإمارة؛ هي صولات وجولات وفزعات، فإذا أتى البغل يرسله الخليفة بخبر، إما بعزل أو بنكال رجف قلبي حتى تبلغ القلوب الحناجر. فيقول هو في القصيدة:

إِذَا مَا بَرِيدُ الْحَيِّ أَقْبَلَ نَحْوَنَا ... لِبَعْضِ دَوَاهِي الدَّهْرِ سَارَ فَأَسْرَعَا
فَإِنْ كَانَ شَرّاً سَارَ يَوْمَاً وَلَيْلَةً ... وَإِنْ كَانَ خَيْرَاً قَصَّدَ السَّيْرَ أَرْبَعَا

ومثـل ذلك الزبيري في اليمـن؛ فإنه سُجِنَ يوم الثورة على إمام اليمن وخرج مـن السجن إلى باكستان، خرج منتصراً؛ فالزبيـري أديب مسلم صاحب رسالة، وله كلمات قوية في الأدب والشعر، حتى إنه يقول:

خَرَجْنَا مِنَ السِّجْنِ شُمَّ الأُنُوفِ ... كَمَا تَخْرُجُ الأُسْدُ مِنْ غَابِهَا
نَمُرُّ عَلَى شَفَرَاتِ السُّيُوفِ ... وَنَأْتِي الْمَنِيَّةَ مِنْ بَابِهَا

خرج مباشرة وركب من باب المندب؛ حتى لا يقبض عليه جنود الإمام وحراسه مرة ثانية، ثم وصل إلى باكستان، وقال في إذاعة باكستان يخاطب الشعب اليمني:

الشَّاعِرِيَّةُ فِي رَوَائِعِ سِحْرِهَا ... أَنْتَ الَّذِي سَوَّيْتَهَا وَصَنَعْتَهَا
أَنْتَ الَّذِي بِسَنَاكَ قَدْ عَطَّرْتَهَا ... وَأَشَعْتَهَا بَيْنَ الْوَرَى وَأَذَعْتَهَا
أَبْعَدْتَنِي عَنْ أُمَّةٍ أَنَا صَوْتُهَا الْـ ... ـعَالِي فَلَوْ ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعْتَهَا
مَا قَالَ قَوْمِي: آهِ؛ إِلاَّ جِئْتَنِي ... وَكَوَيْتَ أَحْشَائِي بِهَا وَلَسَعْتَهَا
عَذَّبْتَنِي وَصَهَرْتَنِي لِيَقُولَ عَنْـ ... ـكَ النَّاسُ هَذِي آيَةٌ أَبْدَعْتَهَا

وسُجن أبو العتاهية؛ ذلك أنه تاب إلى الله من أن يقول الشعر، فحلف المهدي الخليفة العباسي: لتشعرنّ. فقال: والله ما أقول الشعر. فقال: والله لتقولن الشعر. وذاك خليفة وملك، يقول ابن الوردي في مثله:

احْذَرِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ ... لا تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَل

فقال: احبسوه. فقال: فدخلت الحبس فَدُهِشْتُ من خوف الحبس. ووجد شيخاً كبيراً في قصة طويلة، يقول في الحبس- وهي رسالة إلى الخليفة-:

أَمَا -وَاللهِ- إِنَّ الظُّلْمَ شُؤْمٌ ... وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ
إِلَى الدَّيَّانِ يَوْمَ الْحَشْرِ نَمْضِي ... وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

وهذا يُذَكِّرُنِي بامرأة اعتدى عليها ابن الفرات الوزير العباسي؛ أخذ مزرعتها وأخذ بيتها ظلماً وبُهتاناً فشكته إلى الله، فقال: ادعِي في الثلث الأخير؛ فقد سمعنا أن الثلث الأخير تُستجاب فيه الدعوة، استهزاءً وسخرية، فأخذت هي الثلث الأخير شهراً، فسَلَّط الله عليه الخليفة، فقطع يده وأهانه وعزله، ومرَّت به وهو يُجلد بالسياط، فقالت: جزاك الله خيراً؛ جربنا الثلث الأخير ووجدناه أحسن ما يكون والدليل كما ترى. أصبح تحت السياط، ثم قالت:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ ... وَقَاضِي الأَرْضِ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ
فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ... لِقَاضِي الأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

فأبو العتاهية سُجِنَ، يقول: انتظر؛ فسوف تأتيك الأمور. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. فالأيام دُوَلٌ:

هِيَ الأَيَّامُ وَالْغِيَرُ ... وَأَمْرُ اللهِ يُنْتَظَرُ
أَتَيْأَسُ أَنْ تَرَى فَرَجاً ... فَأَيْنَ اللهُ وَالْقَدَرُ؟!

فهو عز وجل سريع الفرج. وقد أنشدوا في ذلك كثيراً.

لكن مقصودي السجن، وما قال الشعراء فيه، وهو شعر السجون، وكيف تحدثوا في تلك المسألة التي يحل بها الإنسان؛ لأن عقارب الساعة تتوقف في السجن، وكأن الزمن يتوقف، وما ترى إلا الجدران أربعة، تنتهي أخبار الأهل والأسرة والآمال، تصبح الحياة ساكتة صامتة.

فهذا ابن الزبير سجن ابنَ الحنفية، وابن الزبير كان يُسمى: العائذ بالبيت. عائذ بالله عائذ بالبيت العتيق؛ لأنه تحصّن فيه من الحجّاج، حين نوى قتله في الفتنة المعروفة.

ابن الزبير سجن ابن الحنفية في سجن عارم، وسجن عارم هو غرفة اتخذها عبد الرحمن بن عوف سجناً لمولى له، سجنه أسبوعين في الغرفة فسُمِّي سجن عارم.

المهم أن ابن الزبير سجن ابن الحنفية في هذا السجن، فقال كثيِّر عزة في ذلك، مخاطباً ابن الزبير:

تُحَدِّثُ مَنْ لاقَيْتَ أَنَّكَ عَائِذٌ ... بَلِ الْعَائِذُ الْمَظْلُومُ فِي سِجْنِ عارِمِ

يقول لابن الزبير: لا تغتر؛ لأنك سجنت محمد بن الحنفية (ابن علي)؛ كيف تحدّث الناس أنك عائذ بالبيت من الحجّاج، مع أن العائذ هو ابن الحنفية (ابن علي).

وَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا جَمَالٌ لِأَهْلِهَا ... وَمَا الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا بِضَرْبَةِ لازِمِ
لِكُلِّ زَمَانٍ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَنْتَهِي ... وَيُصْبِحُ مَا لاقَيْتَ حُلْماً لِحَالِمِ

والآن ذهبوا إلى الواحد الأحد؛ الساجن والمسجون والباطح والمبطوح والجالد والمجلود والقاتل والمقتول، حتى يحكم بينهم ﷻ في محكمة العدل الإلهية، يوم لا حاكم إلا الله، ولا قاضي إلا الله ﷻ.

ومن الملوك الأدباء المعتمد بن عباد صاحب الأدب وصاحب البيان، صاحب الشعر، صاحب إقيال الدولة، أخذه ابن تاشفين بعدما غلب عليه وسمله وسجنه في سجن أغمات، حتى إنه في أيام أبهة المُلك كانت زوجته نذرت أن تمشي على الكافور، فأمر أن يُطيَّن لها طين ويُنبت بالكافور والمسك فتمشي عليه، وذلك من الأبهة والترف، وأُخذ فيما بعد وسُجِن في سجن، وأتت بناته يوم العيد، وقد أصبحن فقيرات حسيرات ينسجن بالأجرة، فأتين يزرنه في السجن- وهو الملك نفسه والآن مسجون- ورأى من شق الباب وإذا ببناته فقيرات حسيرات حافيات، فكاد قلبه ينخلع، وقال قصيدة من ضمنها ما يخاطب فيه نفسه:

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالأَعْيَادِ مَسْرُورَا ... فَزَارَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتَ مَأْسُورَا
تَرَى بَنَاتِكَ فِي الأَطْمَارِ بَالِيَةً ... يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرَا
يَمْشِينَ فِي الطِّينِ وَالأَقْدَامُ حَافِيَةٌ ... كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكاً وَكَافُورَا

وهذه سنة الله ﷻ في تغير الأحوال، وخاصة على أهل الظلم، فإن الظلم- كما يقول ابن خلدون- مؤذن بخراب العُمران وهلاك الدول، انظر لهذا كيف تحول الحال إلى ذلك، وهذا حال الدنيا، حتى إن الحافظ ابن كثير ذكر الخلفاء؛ فتراك

تجد الأمين يُقتل ويقتله المأمون، وابن المعتز يُغتال في ليلة، والقاهر الخليفة العباسي تُسمل عيناه فيصبح أعمى، ويُضرب أحدهم بالدبابيس ويُقتل الوزراء، مثل: ابن الجراح، وابن أبي إسرائيل، وابن بقية الذي صُلِب وقال فيه الأنباري: علوٌّ في الحياة وفي الممات. قال ابن كثير: وهذه هي حال الدنيا وتقلبها بأهلها. كما قال الأول:

دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا ... أَبْكَتْ غَدَاةَ قُبَيْحاً لَهَا مِنْ دَارِ

ولذلك، فإن أحد الشعراء لما رثى ابنه يقول:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ[1] وأنت تُرِيدُهَا ... صَفْوَاً مِنَ الأَقْذَارِ وَالأَكْدَارِ

وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ غَيْرَ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

فليس هناك ما يمكن أن يعود له الإنسان إلا الإيمان بالله ﷻ، إلا الركون له ﷻ والتوكل عليه، فهذه من أخبار السجن.

وبعضهم رحب بالسجن وجعله نعمة وحمد الله على ذلك، حتى إن الإمام المروزي سُجِنَ، فقالوا له: ما أخبارك في السجن؟ قال: سقطت عني الحقوق- أي: حقوق الإخوان، من الزيارة والعيادة والهدية، فلا يُطالبك أحد- ورأيت النواهب ومرت بي العجائب، وخبرت التجارب، وذقت المصائب.

حتى إن بعضهم يقول: «نعم السجن؛ فإنك فيه تراجع نفسك، وينكسر فيه ظهر عُجْبِكَ، ويذهب كِبْرُك، وتتذكر بيت الوحدة وهو بيت القبر».

لأن السجن أشبه شيء بالقبر، فهو حسن لمن وجهه في ذلك، وممن سُجِن ابن تيمية شيخ الإسلام الحافظ أبو العباس، فإنه لما دخله اشتغل في المسائل الشرعية، ووضعوا دونه الباب، فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ

(١) أي: الدنيا.

وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣]. ثم قال: «ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أنّى سرت فهي معي؛ أنا قتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة وسجني خلوة». ثم قال: «المأسور من أسَرَهُ هواه». أي: إن المسجون من سجنه هواه، وليس المسجون من سُجِنَ بين الجدران، فهو قد حوّل السجن إلى مدرسة وإلى جامعة للتأليف والتسبيح والعبادة والذكر ومراجعة القرآن وتدبر الآيات البينات، وكان يكتب الرسائل ويرسلها من السجن إلى الآفاق، ويفتي المسلمين، حتى إن فتاويه جاءت في ثلاثين مجلداً أو أكثر، كُتِبَت في السجن، فأرسل علماً كثيراً.

ويقولون: إن أحد الشعراء الشعبيين سجنه أحد الأمراء، فقال:

أَنَا يَا كَرَى مِثْلَكْ حِبَّ الْعُلا شَجْعَانْ ... بِرَاهِمْ ابْرَاسِهْ مَا يْخَافْ الْيَمَانِيَّهْ

أَنَا بِعْتْ رَاسِي مِنْ امْحَمَّدْ وَلَدْ عَدْنَانْ ... قِبِضْتْ الثَّمَنْ وَاللهْ يَشْهَدْ عَلَى النِّيَّهْ

فالناس مجمعون على أن السجن فيه هذا وذاك، فمن تقبل النكبة، مثل السجن بنفس ضيقة وبتشاؤم ضاقت عليه الدنيا وشعر أنه في أضيق من ثقب الإبرة، وأخذه العويل وأخذه الانهزام والإحباط والهم والغم، ومن أخذ السجن على أنه بيت للعبادة وبيت للخلوة وبيت لمراجعة النفس كان بعكس ذاك.

حتى إن الإمام أحمد- لما سُجِنَ (وعمره ٣٦سنة)- جعلها لمراجعة القرآن وذكره ﷻ وتلاوة كتابه وقيام الليل، حتى يقول الإمام أحمد: إنه لما سُجِنَ، سُجِنَ معه رجل عظيم اسمه عُجيف. قال: يا إمام أحمد، فيمَ سُجِنْتَ؟ قال: في السنّة؛ أقول لهم: القرآن غير مخلوق. فيقولون: مخلوق. قال: اصبر يا أحمد، أنا سُجِنْتُ في شُرب الخمر سبع مرات. يشرب ويُسجن ويبطحونه ويضربونه ويرجع ويشرب، فكان صامداً إلى آخر قطرة، قال الإمام أحمد: فشدَّ قلبي. أي: قوّاني. قال: ولما خرجت من السجن ذهبوا بي. ينقلونه إلى سجن آخر فلقيه أعرابي، فقال: أنت

أبـو عبـد الله؟ قال: نعم. قال: يا أبا عبد الله، اصبـر؛ إنما تُقتل بالسيف من هنا، وتدخل الجنة من هنا. قال: فربط على قلبي.

بعض الكلمـات مؤثرة، يقول أبو العتاهية: لما سُجِنْتُ في السجن سلمت على رجـل شيخ كبير فـي السن، أبيض الثوب أبيض اللحية، قلت: فيـمَ سُجِنْتَ أنت؟ قـال: فيم سُجِنْتَ يا أبا العتاهية؟ قـال: قلت: حلفت ألا أقول شعراً وحلف المهدي الخليفة أن أقول الشعر. قال: سوف تقول الشعر وتخرج. قلت: وأنت، فيم سُجِنْتَ؟ قـال: أخفيـت فلان بن فلان بن علي أبي طالب. طالبـوه بالخلافة من بيت النبوة وطلبنـي الخليفة المهدي أن أُظهِـره، فحلفت بالله ما أخبر به. قلت: أنت ما تُخْبِرُ بـه؟ قال: والله ما أخبر به ولـو قتلوني، والله لو كان بين جلدي وعظمي ما أخبرت بـه. قلـت: وَلِمَ؟ قال: آتي يوم القيامة وخصمـي محمد ﷺ؟ لا، بل آتي وخصمي المهدي. قلت: لما قلت البيتين:

هِـيَ الأيَّـامُ والْـغِـيَـرُ ... وَأَمْـرُ اللهِ يُـنْـتَـظَـرُ
أَتَـيْـأَسُ أَنْ تَـرَى فَـرَجَـاً؟! ... فَـأَيْـنَ اللهُ وَالْـقَـدَرُ؟!

قال: قم بنا نصلّ ركعتين. قال: والله ما انتهينا من الركعتين وسلمنا إلا والباب يُفتـح، وإذا العسكـر يقولـون: المهدي يريدكم. قـال: فدخلنا عليه بالـدَّور. فدخل الشيخ، فقال له المهدي: تخبر بفلان عندك؟! قال: والله لو كان بين عظمي وجلدي مـا أخبـرت به. قال: وَلِمَ؟ قـال: تأتي خصمي أنت، ولا يأتـي خصمي محمد ﷺ. قـال: فقتلـه. وإني أرى الرأس مفصولاً عن الجثة. قـال: وأنت يا أبا العتاهية؟ قال: أنا أنشد الشعر.

فأنشد الشعر وانطلق، وهو يقول:

نُـحْ عَـلَـى نَـفْـسِـكَ - يَـا مِسْـ ... ـكِـيـنُ- إِنْ كُـنْـتَ تَـنُـوحُ
لَـتَـمُـوتَـنَّ وَإِنْ عُـمِّـ ... ـمِـرْتَ مَـا عُـمِّـرَ نُـوحُ

لَطَـــفَ اللـــهُ بِنَـــا إنْ ... نَ الْـخَـطَـايَـا لا تَـفُـوحُ
كُـــلُّ بَـــطَّـــاحٍ مِـــنَ الـنَّـا ... سِ لَـــهُ يَـــوْمٌ بَـطُـوحُ

ومـات بعدها المهـدي، وكان هو يُعرض به في القصيـدة، فيقول: لو بطحتنا فسيأتيك يوم تُبَطَحُ فيه.

هـذه رسائل أدبيـة من السجن، وهنـاك كتاب (أدب السجـون) ممن سجن حتى مـن الشعراء العالميـن ومن الزعمـاء والعلماء والمصلحيـن والناجحين، وغيرهم مـن العصاة- نسأل الله العافية- فهو تربيـة وتهذيب وكفارة وردع، وقد ذُكِـرَ السجن في القرآن في قصة يوسف، وفي قوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. «وَلَتَكُونَـنَّ مِـنَ الْمَسْجُونِينَ» أي: إنـا نسجنك فنحبس دعوتك عن النـاس. فـالله ﷻ المسؤول وحـده أن يوفقنـا وإياكم وأن يجعلنا مـن المقبولين عنده، وأن يزيدنا وإياكم رشداً وسداداً.

وبالمناسبة، فقد قـرأت كتاب (رحلتي الطويلة للحرية) لـ (نيلسن مانديلا) الـذي سُجن (٢٧ سنة) وقد صور غرفته التـي كان مسجوناً فيها وسريره، وصمد وكان على شراب الذرة، حتى ألف هذا التراث وبنى هذا المجد.

obeikandl.com

الشعر والكرم

عند الترمذي: «**السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ**». وقد ضرب العرب أروع الأمثلة في الكرم، سواء قبل الإسلام أم بعد الإسلام، قبل الإسلام فيه الرياء والسمعة والشهرة وحب الثناء، وبعد الإسلام طلب الأجر من الله ﷻ وإسداء الخير والنفع للناس، لكن الكريم عيوبه تُغطى.

يُغَطَّى بِالسَّمَاحَةِ كُلَّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

ومن أكرمهم على الإطلاق قبل الإسلام حاتم الطائي، وكان في جبال أجا وسلمى في حائل، حتى يقول لغلامه في ظلمة الليل لما اشتد برد الصحراء:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرُّ إِذَا أَتَى ضَيْفٌ فَأَنْتَ حُرُّ

وَالْبَرْدُ - يَا فُلانُ - بَرْدُ صِرُّ

فيقول: تعالَ بضيف وأنا أعتقك. أي كرم هذا؟! وأي جود لو كان في الإسلام؟!

وفي الحماسة لأبي تمام بيتان من الشعر من أجمل ما قيل على الإطلاق، هما لحاتم الطائي يصف نفسه بالكرم والبذل، وأنه يحب الخير، وأنه يؤثر الآخرين على نفسه، يقول:

أَمَا وَالَّذِي لا يَعلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ وَيُحْيِي الْعِظَامَ الْبِيضَ وَهِيَ رَمِيمُ

لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبَطْنَ وَالزَّادُ يُشْتَهَى مَخَافَةَ يَوْمٍ أَنْ يُقَالَ: لَئِيمُ

وله في ذلك أمثال، لكن معنا هذان البيتان اللذان يقول فيهما ما معناه: والله الذي لا إله إلا هو إن الله ليعلم أنني أجوع أنا وأتحمل الجوع وأذوق مرارة الجوع وإنني أوثر غيري: جاري وضيفي؛ حتى لا يقال: إني بخيل يوماً ما من الأيام. حتى إنه يعطيك درساً في الكرم في الراحلة، والسيارة التي تشارك غيرك بأن يركب معك، فيقول:

إِذَا كُنْتَ رَبّاً لِلْقَلُوصِ[1] فَلا تَدَعْ رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبِ

أَنِخْهَا فَأَرْكِبْهُ، فَإِنْ حَمَلَتْكُمَا فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ الْعِقَابَ فَعَاقِبِ

(١) القلوص: الناقة.

يقول: أنخ الناقة؛ فإن تحمل اثنين فاجعله معك، وإن كانت لا تستطيع فاركب مرة وتنزل أنت ويركب هو، وهكذا.

هذا هو الكرم والجود الذي ضُرِب مثلاً لحاتم وأمثاله، حتى إن بعض الصحابة ﷺ والتابعين اجتمعوا عند الحجر الأسود في ليلة ظلماء يسمرون في عهد عبد الله بن الزبير والحسين بن علي وابن عباس ﷺ فقالوا: «مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ الآنَ؟». فاختلفوا. وقيل: إن ابن عمر «كان جالساً وابن الزبير وابن عباس ﷺ، قال واحد منهم: أكرمهم عبد الله بن جعفر الطيار. وقال الثاني: عُرابَة الأوسي أكرم. وقال الثالث: بل قيس بن سعد بن عبادة أكرم. قال كبيرهم من شيوخ قريش: كلٌّ يذهب إلى صاحبه ويأتيه بهيئة فقير ومسكين، فينظر ما يعطيه، ونأتي ونلتقي بعد مدة في هذا المكان ونرى أيهم أفضل. فذهب الذي يريد عبد الله بن جعفر فلبس أسمالاً بالية وملابس ممزقة، وتعرض له وإذا عبد الله بن جعفر خارج من المدينة يريد دمشق، فلقيه في الطريق، قال: من أنت؟ قال: رجل مسكين انقطعت بي الحبال وقصدت الله، ثم قصدتك. وكان عبد الله بن جعفر على فرس ومعه سيف وأدواته ودراهم فقال: أنا خرجت من المدينة من ليلتين، ولو كنت زرتني في المدينة لوجدت ما يسرك، لكن الآن خذ الفرس بما عليه بدراهمه وهذا السيف، وأنا سوف أنتظر تحت هذه الشجرة والناس يعرفونني وسوف يمر الرُّكْبُ. قال: كيف آخذ؟! قال: والله لتأخذن؛ أنا من قوم إذا وهبنا لا نعود في الهبة، وسوف يمر السيارة والمسافرون ويعرفونني وأنتقل معهم. فأخذ الرجل الفرس والسيف وما عليه من شيء ومن الدراهم ومشى، وأما الذي قصد قيس بن سعد بن عبادة فكان في المدينة وأبوه سعد ابن عبادة صحابي ﷺ، وقيس هذا من أكرم الناس وكان قائداً لعلي ﷺ على مصر، فأتى الرجل في الظهيرة وهو نائم فطرق الباب، فخرجت الجارية فقالت: سيدي نائم، ولكن هذه ألف دينار، ولا توقظ سيدي. فذهب.

هذه جارية فكيف إذا كان هو؟

ثم ذهب الذي أراد عرابة الأوسي فوجده شيخاً كبيراً أعمى، ذهب إلى المسجد، يعتمد على اثنين من الموالي من خدامه، قال: أنا قصدتك بعد الله وأنا منقطع ولا مال لي. فقال عرابة الأوسي- وهو أنصاري أصلاً-: والله إن الحاجات ما أبقت لي شيئاً إلا هذين الخادمين، فخذهما لك، فقد تخلصت منهما. قال: فأخذتهما، فوالله إنه تركهما وإنه ليلتمس الطريق ويعتمد على الجدران، حتى وصل إلى المسجد.

فعادوا إلى الصحابة والتابعين ﷺ فأخبروهم بذلك فقالوا: عبد الله بن جعفر كريم ومن كرمه أنه أعطى وهو مسافر منقطع، وقيس بن سعد كريم والدليل أن جاريته أعطت فكيف لو قام هو؟! لكن أكرمهم عرابة الأوسي؛ لأنه مدين وليس عنده إلا هذان الخادمان، ومع ذلك أعطاهما وبقي يتلمس الجدار وهو أعمى حتى وصل إلى المسجد، فيقول الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِالْيَمِينِ

حتى إن أبا تمام يقول:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُه

وعلى هذا البحر قصيدة لزهير يقول فيها:

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ ... فَلُجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْبِرُّ سَاحِلُهْ

ثم يقول:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوَ انَّهُ ... أَرَادَ انقباضاً لانْقَطَعْنَ أَنَامِلُهْ

وكثير من الناس يخلطون بين أبيات زهير، وبين أبيات أبي تمام، وبين أبيات مروان بن حفصة:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهْ

لكن من أحسن ما رأيت في الكرم بيتاً فريداً؛ حتى إنه عجب منه الزمخشري، وهو للحطيئة يمدح كريماً:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوْقِدِ

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لما سمع هذا البيت-: «هَذَا لا يَصْلُحُ إِلاَّ لِلرَّسُولِ ﷺ». فإنه أكرم الناس.

وفي الصحيح عن علي وابن عباس رضي الله عنهم: أن النبي «**كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ**». فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، فهو ﷺ الأحق بقول الشاعر:

مَا قَالَ: لا قَطُّ إِلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ لَوْلا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاؤُهُ نَعَمُ

وهذا البيت للفرزدق من قصيدة قالها في علي بن الحسين زين العابدين، وكان زين العابدين من أجمل الناس وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أبوه الحسين الشهيد رضي الله عنه، أتى يطوف بالبيت والبيت مزدحم، ودخل هشام بن عبد الملك وهو خليفة، وكان في دمشق، أتى يطوف بالبيت والناس مزدحمون، أتى هشام بحرسه وبموكبه وحاشيته وجلس وقال: أعطوني ما أجلس عليه. ينتظر حتى يخف الزحام فجلس، وأما زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «فأتى بعصا من خيزران غير محرم، بل يطوف وريحه مسك ووجهه كالقمر ليلة أربعة عشر، فلما رآه الناس فسحوا له الطريق عند المطاف، وأخذوا يوسعون له، وأهل الشام لا يعرفون زين العابدين، وهشام بن عبد الملك يعرف من هو، لكن الحسد أخذ منه مأخذه، فقال هشام: من هذا الذي يفتح له الناس الطريق ويكبرون لما دخل؟ والفرزدق موجود فقام وقال:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِمُ ... هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللهِ قَدْ خُتِمُوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ ... الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَلا يُكَلَّمُ إِلاَّ حِينَ يَبْتَسِمُ
يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
فِي كَفِّهِ خَيْزَرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ ... مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

إلى أن ختم القصيدة فسجنه هشام بن عبد الملك ستة أشهر في سبيل الله، فالشاهد:

مَا قَالَ: لا قَطُّ إِلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ ... لَوْلا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاؤُهُ نَعَمُ

فيقول: إنه لا يعرف كلمة (لا). إلا إذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. فالله ﷻ كان يجعل في بعض الناس ما الله به عليم، حتى إن الناس مجمعون على حب الكريم وعلى مدحه سواء بالعامي أو بالفصيح، وأذكر أننا ذهبنا إلى أناس من الكرماء، فطلبوا قصيدة من شعري الشعبي؛ لأن الجو جوٌّ يستحق شيئاً من الشعبي؛ فهم يفهمونه أكثر من العربي الفصيح، وبعدما أكرمونا بما وجدنا من حسن الضيافة والترتيب والوجوه النيرة والمسفرة والابتسامات والتراحيب والدلال الْمُهَيِّلَة والْبخور والإكرام قلت:

بِسْمِ اللهْ قُدَّام بَدْء الْحَرْف مِيلَهْ وِاعْتِدَالَهْ
وَالصَّلاة عَلَى مُحَمَّدْ وَالرِّضَا لانْصَارْ دِينَهْ

يَا سَلامَ اللهْ عَلَى الْفُرْسَانْ فِي بِيتِ الشَّكَالَهْ
تَعْرِفْ الرِّجَّالْ مِنْ لَمْحَةْ عُيُونَهْ فِي جِبِينَهْ

الْوُجُوهْ امْنَ الْكَرَمْ مِثْلْ الْوَهَجْ يغْشَاهْ هَالَهْ
وَالـدّلال امْهَيْلَهْ وَالْبِنْ تَوَّهْ حَامْسِينَهْ

اسْتِمَعْ مِنْ شَاعِرٍ تِسْعَ الْقُوَافِي ارْتِجَالَهْ
أَعْطِ قُوسَ الشِّعْرْ لاهْلِهْ وَالْخبَرْ جَا مَنْ ذِهِيلَهْ

شَاعِرٍ مَا يَسْرِقْ الأَبْيَاتْ مِنْ عَمّهْ وَخَالَهْ
فِيضْ نَارهْ مِنْ مِعِينَهْ وَالْدِهْ يَسْبِغْ نِعِيمَهْ

اللّه كَمْ مِنْ شَاعِرٍ لَوْ شَافِنِي يَتْرِكْ ضَلالَهْ
الْجِمَلْ مِنْ بَعْدْ هَذْرِهْ قَامْ يِذِّنْ مِنْ حَنِينِهْ

مِنْ رِجَالِ الْمَجْدْ جَدّ الْمَجْدْ رَزُّوا لَهْ اعقَالَهْ
السُّيُوفْ الْمِصْلِتَهْ نِعْمِين بَاسَادَ الْعَرِينَهْ

مِنْهُمْ اللّي اهْتَزْ عَرْشَ اللّهِ عَلَى غِيبَة خَيَالِهْ
وِمْنُهُمَ اللّي غَسَّلُوه امْلاك رَبِّي حَامِلِينَهْ

فِي بَلَدْنَا نَصْنَعَ التَّارِيخْ مِنْ فَجر الرِسَالَهْ
نِسْقِطَ الطَّيَّارْ يُومَ الْحَرْب وَانْفِكْ الرّهِينَهْ

إِنْ تِبِي بِالْعَرَبِي جِتْكَ الْقُوَافِي فِي جِزَالَهْ
وِانْ تَبِي بَالنَّبَطِي الْعِينِكَمْ تِكْرَمْ مَدِينَهْ

وإنما قصدت من هذا أن الكرم خصلة إذا سارت في الناس صارت مضرب المثل فيهم، حتى إن هرم بن سنان أقسم إنه لا يسلم زهير بن أبي سلمى عليه إلا أعطاه جائزة، فاستحيا زهير، فكان يقول في المجلس: عِموا صباحاً إلا هرم وخيركم استثنيت.

ومعنى عم صباحاً، أي: وُفِّقْتَ صباحاً، أو أُسْعِدْتَ صباحاً. ولذلك لامرئ القيس أبيات يذكر فيها هذا، يقول:

أَلا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي ... وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي؟
وَهَلْ يَعِمَنْ إِلاَّ سَعِيدٌ مُنَعَّمٌ ... قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

ولما وفد أبو ذر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، أول ما وفد قال: «عِمْ صَبَاحاً يَا أَخَ الْعَرَبِ». فقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَبْدَلَنِي بِتَحِيَّةِ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ». بتحية قومه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فيقول زهير للمجلس: عموا صباحاً إلا هرم وخيركم استثنيت؛ لأنه حلف: ما تصبحني بخير إلا أعطيك هدية. حتى إنه يقول فيهم:

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ ... طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأَوْلادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ... قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
مُحَسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ ... لا يَنْزِعُ اللهُ مِنْهُمْ مَا لَه حُسِدُوا

حتى يقول بعضهم في الغزل:

دَعْ ذَا وَدَنِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ ... خَيْرِ الْهُدَاةِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ
لَوْ لَمْ تَكُنْ شَيْئاً سِوَى بَشَرٍ ... كُنْتَ الْمُنَوَّرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ

تخلق ما تقول، أي: إني أراك تقوم بكلام تفعله حينما تقوله، أي: تبتدع كلاماً، لكنك تنفذه. فلست من الذين يقولون ما لا يفعلون.

حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «يَا ابْنَ هَرِمٍ، مَاذَا أَعْطَاكُمْ زُهَيْرٌ؟ وَمَاذَا أَعْطَيْتُمُوهُ؟ قَالَ: مَدَحَنَا وَأَعْطَيْنَاهُ. قَالَ: ذَهَبَ مَا أَعْطَيْتُمُوهُ وَبَقِيَ مَا أَعْطَاكُمْ». وهو الثناء الحسن، فمن أراد الثناء الحسن فليقصد بعمله الله عز وجل.

ومن أكرم الناس على الإطلاق -ودعني من حاتم وكعب وهرم بن سنان- أبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩ - ٢١]. فقد أنفق أمواله في سبيل الله وطلب ما عنده عز وجل وأعتق الرقاب، واشترى الخيول في سبيل الله عز وجل وجهز الجيش وأنفق ذات اليمين وذات الشمال في سبيل الله، حتى يقول عمر رضي الله عنه: «**قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَأَسْبِقَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْيَوْمَ. فَأَتَيْتُ بِنِصْفِ مَالِي فَأَعْطَيْتُهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ أَتَى أَحَدٌ بِمَالٍ؟ قَالَ: أَخُوكَ أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: بِمَاذَا أَتَى؟ قَالَ: بِمَالِهِ كُلِّهِ. قُلْتُ: وَاللهِ لَا أُسَابِقُ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ الْيَوْمِ**». فالخير كله عنده رضي الله عنه، ومن أمثاله رضي الله عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه جهز الجيش وشرى بئر رومة للمسلمين، حتى قال ﷺ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا صَنَعَ بَعْدَ الْيَوْمِ**».

والأمثال في كرم الناس كثيرة، فإن أبا حميد الطوسي كان كريماً كرمًا، جعل بعض الشعراء يقول فيه:

لَوْلَا حُمَيْدٌ لَمْ يَكُنْ ... نَسَبٌ يُعَدُّ وَلَا حَسَبُ

يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي ... شَرَقَتْ لِمَقْتَلِهِ الْعَرَبُ

ولما مات حميد هذا وكان قد أكرم الشعراء كرماً كثيراً فقال أحدهم فيه أبياتاً منها:

أُصِبْنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ ... أُصِيبَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ أَضْحَتْ تَضَعْضَعُ

وَأَدَّبَنَا مَا أَدَّبَ النَّاسَ قَبْلَنَا ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلصَّبْرِ مَوْضِعُ

فهذه أقوال في الكرماء وفي الأسخياء، وهذا يدل على أن الكرم منه الكرم بالجاه والكرم بالعلم والكرم بالوقت والكرم بالمال والكرم بالطعام، حتى إن من لطائف الجودِ الْجُودُ بالسُّهر، فقد قال البخاري: باب السهر بعد صلاة العشاء. فإذا جاءك ضيف واحتاج أن تسهر، أن تسهرَ معه، وجاء ابن القيم وأتى بهذا في (مدارج السالكين) كما قال أحدهم:

لَوْ قَالَ قَائِلُهُمْ: هَبْ لِي -فُدِيتَ- نُـــورَ عَـيْـنَـيْـكَ لَـــمْ يَـنَـمِ

يقـول: إنه مـن كرمه لو طلبت نوم عينيه لأعطاك نـوم عينيه وبقي في سهر، وهـذا شأن الكريم، فإنه كمـا يقول المقنع الكندي، وهو من أكـرم الناس وأبياته تُروى:

يُعَيِّرُنِي بِالدَّيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا دُيُونِي فِي أَشْيَاءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدَا
أُسَدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا حُقُوقَ أُنَاسٍ مَا اسْتَطَاعُوا لَهَا سَدَّا
وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدَّا
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ وَإِنْ هَتَكُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُ وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا

إلى أن يقول- وهو الشاهد-:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا شِيمَةٌ لِي غَيْرُهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

فمـن تواضع الإنسان ومن شهامتـه ومروءته أن يكون عبداً للضيف، إذا دخل تخدمه وتباشر أنت وتحيي وترحب وتتولى الأمور، فهذا يدل على نبلك وعلى حسن معدنك وعلى استقامة حالك وأنك تريد أن تسجل اسمك في سجل الخالدين.

قصائد قتلت أصحابها

موضوع- ولو أنه مخيف لكنه طريف-:

قصائد قتلت أصحابها. ينبيك أن الكلمة، إما أن ترفع صاحبها أو تقتله، وهذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟! ولذلك تجد القرآن الكريم ينبه على الكلمات واستخدام العبارات، والمسؤولية في الجملة إذا نطقتها ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ولذلك يقول ﷺ: «**كُفَّ عليك لِسَانَكَ**».

وبعض الشعراء أرسل لسانه، وما حَكَّم عقله على لسانه، فدفع دمه وحياته ثمناً لعثرة اللسان.

عثرة الرِّجل يقوم منها الإنسان، لكن عثرة اللسان تذهب بالرأس فيبقى الإنسان دون رأس، أحياناً نتحمل، لكن أحياناً تأتي كلمات غير مقبولة، وفي قائمة الشعراء أناس دفعوا حياتهم ثمناً لكلمات، مع أن مبدأ الحق أن يضحي من أجل الحق ومن أجل رسالة الحق، لكن أن يضحي من أجل الباطل وأن يقدح في الناس وأن يشتمهم ثم يُقتل على ذلك أو يُجلد أو يقول: إنها تضحية، فهذا عجيب.

هذا تأديب على تطاوله على أعراض الناس وعلى خصوصياتهم وعلى ذوات الناس.

طرفة بن العبد قُتِلَ وعمره (٢٦ سنة). فالعبقرية لا تعترف بعمر؛ لأن العبقرية أمر مشترك بين البشر من العرب وغيرهم من الجاهليين والإسلاميين، لكن كإنسان عبقري، هذا طرفة وهو صاحب الدالية الرائعة الجميلة التي يفضلها بعضهم على كل المعلقات، والتي يقول في مطلع أبياتها من ذكر الأطلال ومنازل الديار وغيرها:

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ ببرقة ثَهْمَدِ تلوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

والتي من ضمنها:

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

حتى يقول:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَنْتَقِي حَلِيلَةَ مَا لِلْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

ولكنه سبك وحبك وقوى اللفظ.

المقصود أنه تعرض للنعمان بن المنذر. وقيل: لأحد ملوك الغساسنة الآخرين. وحكم عليه بالقتل. فكتب رسالة للمتلمس الشاعر ورسالة لطرفة وأمرهما أن يذهبا بهما إلى عامله على البحرين، لكن المتلمس شك ففتح الرسالة فوجد فيها الأمر بقتله فشرد وألقى حذاءه ورحله، أما طرفة فرفض؛ لأنه ظن أنه له جائزة عند ملك البحرين، وقيل: الأحساء. فذهب من أجل أن يأخذ الجائزة؛ لأن الأمير قال له: اذهب إلى هناك. يريد أن يتخلص منه دون أن يقتله في العاصمة، وذهب بالرسالة، وقال له بعض الناس: احذر. لكنه شابّ، والشاب صاحب جموح وصاحب طموح وصاحب اندفاع وشدة، فذهب وأعطى الرسالة إلى الأمير في الأحساء أو في البحرين، ففتح الرسالة فإذا فيها: إذا جاءك فاقتله. فلما جاء قيَّدَه، ثم ذبحه ذبح الشاة.

والراجح عند أهل الأدب أنه عمرو بن هند، وسبحان الله تأتي إلى ملك صاحب دولة وكيان ثم تعتدي عليه! حتى عقلاً حتى دبلوماسية حتى سياسة ما لك أن تتعرض، فكيف إذا كان هذا خطأ؟! فدفع روحه ثمناً لذلك.

ولولا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عيشَةِ الْفَتَى ... وَجَدّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عوَّدِي

ويقول:

فَإِنْ كُنْتَ لا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي ... فَدَعْنِي أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

وهذا منطق الجاهلية والوثنية، فيقول: ما دمت سأموت فعاجلوني بالمرفهات وأسرعوا لنا بالدنيا. لأنه يرى أن الموت حق، مثل: عمر الخيام، خطَّأه أهل العلم لما قال:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الْعُمْرِ لَمْ أُسْتَشَرْ ... وَتُهْتُ فِيهِ بَيْنَ شَتَّى الْعِبَرْ
فَمَا أَطَالَ النَّوْمُ عُمْرَاً وَمَا ... قَصَّرَ فِي الأَعْمَارُ طُولَ السَّهَرْ

لأنهم لا يعترفون باليوم الآخر الذي ذكره الله ﷻ على ألسنة أنبيائه - عليهم السلام- فالشاهد أن طرفة أخطأ فدفع ثمن ذلك حياته، أما أهل الإيمان فلهم ثلاث غير ثلاث طرفة هذه، لهم: قيام الليل، وطلب العلم، وصيام الهواجر. كما رد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على طرفة وأمثاله.

وممن قتلهم شعرهم أبو الطيب المتنبي الشاعر المشهور، بل هو إمبراطور، وملك الشعراء على الإطلاق، حتى إنه هو يفخر بنفسه ويحق ذلك في منطق أهل الأرض، يقول:

وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرَاً أَصْبَحُ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وهو دائماً في قصيده، إما أن يمدح نفسه في أول القصيدة أو في آخرها، حتى إنه إذا مدح ملكاً فلا بد أن يذكر نفسه، ويرى أنه فوق الجميع، وأن الوزراء لا يستحقون أن ينظروا إليه مجرد النظر، وأنه فوق الجميع إلى آخر ما قال، فها هو يقول:

وإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

لكنه عموماً ترك رسالة أدبية وترك أثراً كبيراً وترك حكمة، وأنا لم أرَ عند العلماء والحكماء استشهاداً بالأبيات أكثر من أبيات المتنبي، حتى إن كتبهم حفلت بأبياته، وإن تنظر في مقدمة ابن خلدون، أو إحياء علوم الدين أو كتب ابن تيمية، أو من جاء بعدهم تجدها كلها تحفل بالاستشهاد بأبيات الشاعر الأعجوبة.

يقول أحد العلماء: الشعراء يمشون والمتنبي يطير. وقرأت لأحد أدباء اليمن أن أحد ملوك اليمن قال له أديب هناك وشاعر: أنا أشعر من المتنبي. قال: كذبت أنت وكذب أبوك وجدك؛ للمتنبي (٥٠٠ بيت) تدور على ألسنة الملوك، علاوة على غيرهم.

ولذلك تجد غالب الحكم التي تدور على ألسنة الناس هي للمتنبي.

وقصة مقتله أنه تعرض لأحد الناس الوجهاء وتعرض لأمه وسب أمه وشتمها، فثار ذاك، فلما ذهب المتنبي إلى عضد الدولة في شيراز، الملك الذي قتل ابن بقية، وهذا الملك كان في شيراز، ثم أتى إلى بغداد فيما بعد، وكان المتنبي قد مدحه بقصائد، ويقول من ضمن قصائده فيه:

أَرُوحُ وَقَدْ خَتَمْتَ عَلَى فُؤَادِي[1] ... بِحُبِّكَ أَنْ يَحِلَّ بِهِ سِوَاكَا
وَقَدْ حَمَّلْتَنِي شُكْرَاً ثَقِيلاً ... طَوِيلاً لا أُطِيقُ لَهُ حِرَاكَا
أُحَاذِرُ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمَطَايَا ... فَمَا تَمْشِي بِنَا إِلاَّ ابْتِرَاكَا
إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ ... فَأَكْثَرُ مَا يَعُدُّكَ مَا شَفَاكَا

هذا شعر باقٍ وأعجوبة، وهو دائماً يأخذ الجائزة بين الشعراء، وكانوا قرابة الثمانين وهو الذي يأخذ الجائزة بينهم والتفوق، المقصود أنه لما أخذ الجائزة ورجع خرج له بنو أسد؛ لأنه هجا أم أحد أمرائهم وعرَّض بها، هجاها هجاء مقذعاً، واتهمها في عرضها- ويل له من الله- فخرج هؤلاء النفر، فلما رأى القوم أقبلوا، ركب الفرس وأراد الفرار؛ لينجو، فقال له غلامه: ألست القائل:

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ... وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي ... وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

فثبت وقاتل حتى قُتِلَ، وهو ذو شجاعة بالجملة وكان يقولها في شعره. فقتله شعره. وقد عُدّت هذه من أجمل القصائد، حتى إن بعضهم يقدمها على سائر قصائد الديوان ويجعلها القصيدة الأولى من حيث الروعة والإبداع، وهي التي يقول في مطلعها:

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... وَمَنْ بِحَالِي وَجِسْمِي عِنْدَهُ سَقَمُ
مَا لِي أُكَتِّمُ حُبّاً قَدْ بَرَى جَسَدِي ... وَتَدَّعِي حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْعَجَمُ

(١) هذا نفاق اجتماعي.

إلى أن يقول:

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا ... بِأَنَّنِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي ... وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ
الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ... وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

إلى أن يقول:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُم ... وجدانا كُلّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا ... أَلاَّ تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

إلى آخر ما قال.

لكنه ترك على كل حال حكمة.

لقيه بعض الأدباء، فقال له: أنت ادَّعَيت النبوة في شبابك؟! فقال: من عثرات الشباب. أي: عثرات الصبا. قال: ما هي معجزاتك إن كانت لك معجزة؟ قال: قولي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوّاً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وقد قيل: إن هذا مما دسَّه عليه أعداؤه وحسّاده؛ لتشويه سمعته والتنكيل والكيد به.

ولكنها حكمة، فهو يقول: ومن نكد الدنيا عليك أنه لا بد لك من أن تجامل وتصانع بعض الأعداء وتتخذه صديقاً؛ لأن هذه الحياة لا تكون إلا بهذه الطريقة، حتى إن زهير بن أبي سلمى يقول:

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسَمِ

فلتكن عندك لباقة اجتماعية وعندك رفق ودبلوماسية وعندك تغافل في بعض الأمور، مثلما يقول أبو تمام:

لَيْسَ الْغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فينبغي أن تتغاضى عن زلات الإخوان، وأن تتغافل عن الإساءات؛ لأنك سوف تدفع الثمن أعلى لو أخذت النصر والقصاص.

والإمام أحمد قيل له: ما منزلة التغافل من حسن الخلق؟ قال: تسعة أعشار حسن الخلق التغافل. أي: أن تتغافل عن زلات غيرك وكأنهم ما قالوا وتنسى الأمور؛ حتى تستطيع أن تعايش الناس، أما من يحاسب هذا؛ لأنه تكلم فيه ويرد على هذا؛ لأنه كتب فيه مقالة، وينظم قصيدة ويرد على ذلك؛ لأنه أجاب بقصيدة، فيذهب العمر وتزداد العداوات.

قرأت لرئيس أمريكي مشهور (إبراهام لنكولن)، يقول: أنا لا أرد على رسائل الشتم التي تُوَجَّه إِلَيَّ، أو لا أفتحها، فضلاً عن أن أرد عليها. فينبغي علينا التغافل وأخذ العبرة من سيرة هؤلاء الذين دفعوا حياتهم.

وممن قُتِل علي بن جبلة العُكَوَّك، وكان من أشعر الناس، وعلي بن جبلة هذا عاش في العصر العباسي في عهد المأمون، حتى يقول الذهبي عنه: شعره كله نُخَبٌ. أي: جواهر ودرر. وهو الذي يقول:

بِأَبِي مَنْ زَارَنِي مُكْتَتِمًا حَذِرًا مِنْ كُلِّ وَاشٍ جَزِعَا
يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى تِلْكَ الْخُطَا ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّى وَدَّعَا

ونظم قصيدة في أبي دُلَف الأمير، وأبو دُلَف أمير مشهور في خراسان من أكرم الناس، لكنه أمير من قِبل المأمون والمأمون هو الخليفة الملك، ففضله على كل أهل الأرض بما فيهم المأمون، يقول في القصيدة -وهي من أجمل القصائد-:

ذَادَ وِرْدُ الْغَيِّ عَنْ صَدَرِ ... فَارْعَوَى والْغَيُّ مِنْ وَطَرِهْ
دَعْ جِدَا قَحْطَانَ أَوْ مُضَرِ[1] ... فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِهْ
وَامْتَدِحْ مِنْ وَائِلٍ رَجُلاً ... حجر الأَيَّامِ فِي حُجَرِهْ
الْمَنَايَا فِي شَبَا يَدِهِ ... وَالْعَطَايَا فِي شَبَا ظُفُرِهْ
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ وَمُحْتَضَرِهْ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلَفٍ ... وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهْ
كُلُّ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٍ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

يقول: كل الناس يأخذون منك المكارم ويأخذون منك مجدهم. وهذا مبالغة ونفاق، فسمع بذلك المأمون، الخليفة العباسي في بغداد، فقال عن نفسه: قتله الله إن لم يقتل علي بن جبلة. ثم قال: عليَّ به. وأتوا به إلى بغداد، وأيقن أنه لن يقتله أمام الناس؛ لأنه مدح ذاك وغلَّبه عليه، بل لا بد من أن يتخذ حيلة؛ كي يفتي العلماء بجواز قتله، ويبرر للرأي العام أنه قتله بحجة، فأُدخِل عليه في البساط وكان أسمر، وعلي بن جبلة فيه بهق وبرص، لكنه شاعر يأخذ بالألباب، ومن أمثلة شعره ما قاله لما مات حميد الطوسي البطل، مما يعد من فن الرثاء:

أُصِبْنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ ... أُصِيبَتْ عُرُوشُ الدَّهْرِ أَضْحَتْ تَضَعْضَعُ
وَأَدَّبَنَا مَا أَدَّبَ النَّاسَ قَبْلَنَا ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الصَّدْرِ مَوْضِعُ

الشاهد أنه لما دخل قال المأمون: قتل الله نفسي إن لم أقتلك؛ لكن لن أقتلك بقولك:

كُلُّ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٍ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

(١) أي: اترك عطاياهم.

جعلتنا كلنا عبيداً لأبي دُلَف، نحن الذين نكتسي منه المفاخر، مع العلم أن المأمون هو الخليفة! لكنني أقتلك بأبياتك التي تقول فيها:

أَنْتَ الَّذِي تُنْزِلُ الأَيَّامَ مَنْزِلَهَا ... وَتُنْزِلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

وَمَا مَدَدْتَ بِأَقْلَامٍ مُرَتَّبَةٍ ... إِلاَّ قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَآجَالِ

والصحيح أنه قتله في أبياته في مدح أبي دلف.

قال: يا غلام، اضرب رأسه. فقتله في البساط، فدع ثمن كلماته المبالغة المجحفة التي لا يُقرها عقل.

وابن هانئ الأندلسي قُتِل وعمره (٣٧ سنة)، أُصيب بمرض عضال، يقول في أحد أمراء الفاطميين، وهل هذا الكلام يُقال لبشر؟!:

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ ... فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

قاتله الله! الواحد القهار الذي تفرد بالبقاء ﷻ له الأسماء الحسنى، لا إله إلا هو. حتى يوسف عليه السلام في الزنزانة يلقي محاضرة في التوحيد لما أتوا يطلبون تعبير رؤياهم.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. فسمى الله ﷻ باسمين عظيمين: فهو الواحد الذي تفرد بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله جل في علاه لا إله إلا هو، ثم قال: القهار. الذي قهر غيره فإنه لو كان واحداً ولم يكن قهاراً لم يكن هناك تمام في الملك، فقال: الواحد القهار. فيأتي هذا - نعوذ بالله من عمله ومن سوء إرادته ونيته - فيقول:

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ ... فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

قيل: إنه قُتِل فيما بعد، تعرض له بعض الناس وقتله. وقيل: أصابه مرض عُضال فأصبح يتقلب ويعوي ويصيح ويضج، ويقول:

أَبْعَيْنِ مُفْتَقِرٍ إِلَيْكَ نَظَرْتَنِي ... فَأَهَنْتَنِي وَقَذفتَنِي مِنْ حَاذِقِ

لَسْتَ الْمَلُومَ أَنَا الْمَلُومُ؛ لأَنَّنِي ... عَلَّقْتُ آمَالِي بِغَيْرِ الْخَالِقِ

الآن يقر الإنسان بسعة الصدر.

يقول علي الطنطاوي: ساعة الصفر ساعة لقاء الله وساعة سكرات الموت، يُذعن فيها الجبار ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني، ويتوب فيها العاصي.

حتى فرعون شيخ الملاحدة يقول: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. لكن هيهات، فينبغي أن يحسب الأديب كلماته والشاعر كذلك، وهذا في الدنيا فكيف عند الله؟! هذا غضب الملوك والأمراء والجبابرة، فكيف غضب الله الواحد القهار ﷻ؟!

ولذلك لما ذكر الله ﷻ شهادة بني إسرائيل المزورة على الرسالات السماوية الخاطئة الكاذبة قال: ﴿سَنَكْتُبُ شَهَٰدَتَهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. أي: سوف نكتبها ونسألهم. يقول ﷻ عن الكلام المَزوّر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ثم قال في الملفات الماضية الأدهى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]. اللهم أحسن خاتمتنا يا رب العالمين.

قصائد سارت بها الركبان

هي أبيات من الأدب العربي خُلّدَت عند العرب وصارت مضرب المثل، حتى حفظها الناس وتداولوها في المجالس لحسنها، وما كل شاعر يمكن أن يُخلَّد أدبه وشعره، لكنّ هناك نابغين، والنابغون من الشعراء هم الذين سطَّروا أبياتهم في قلوب الناس، وهذه حظوظ من الله ﷻ فالشيوع والذيوع حظ منه ﷻ يُرزق به شاعر ويُحرم ألف شاعر، وأذكر بالمناسبة قائمة، منهم المتنبي وأبو تمام والبحتري وحسان، وشوقي

مـن المعاصرين يخـرج شعرهم، ويُنقل بيـن الناس، حتى إن مـن ضمن الأبيات المشهورة التي يقولها أبو تمام -وهي أكثر ما يُتداول على ألسنة الناس-:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْـرَ فَضِـيلَةٍ ... طُـوِيَـتْ أَتَـاحَ لَـهَـا لِسَـانَ حَسُـودِ

لَـوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَـاوَرَتْ ... مَـا كَـانَ يُـعْـرَفُ طيب نفح الْعُـودِ

وهـذه حكمـة، فيقـول: إن الله إذا أراد أن ينشـر فضيلة رجل مـا سلَّط عليه حسـوداً، فينقـب عنـه فيشتهر هـذا الرجل، حتى رأيـت مصطفى أميـن الكاتب المصـري المشهور قـال: إذا رأيت ناجحـاً أو صحيفة أو كتابـاً، ورأيت له نجاحاً وأصبـح ينهال عليـه كلام الحسـاد ويلقون عليـه بالطوب، فاعـرف أنها مدفعية انتصـار تطلق (٢١ طلقة) في فرح انتصار هذا الشخص. وهذا أمر معلوم لكن قصدي شيوع الكلام وانتشاره في الناس، وممن رُزِق ذلك أبو تمام حتى إنه يقول- من ضمن أبيات له توضع في التقويم اليومي-:

مَـرَّتْ سِنِينٌ بِـالسُّعُودِ وَبِـالْهَنَا ... فَـكَـأَنَّـهـا مـن قِـصَـرِهـا أيـامُ

ثُـمَّ انْـثَـنَـتْ أَيَّـامُ هَـجْـرٍ بَـعْـدَهَـا ... فَـكَـأَنَّـهَـا مِـنْ طُـولِـهَـا أَعْـوَامُ

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينُ وَأَهْلُهَا ... فَـكَـأَنَّـهَـا وَكَـأَنَّـهُـمْ أَحْـلامُ

هذه هي الحياة؛ فسنينها الطيبة أيام، وأيام الشدة فيها أعوام، وتمر جميعاً، فتصبح كأنها أحلام. وهذه هي الحياة الدنيا، لكن أن يترجمها بهذا الكلام فهذه هي الفصاحة والبلاغة.

ومن ذلك أنه نظم قصيدة في المعتصم يهنئه بفتح عَمُّورِيَّة بـ (٧٠بيتاً).

يقول ابن القيم: إنه أعطاه على كل بيت (١٠٠٠ دينار). حتى إنه يُذكر عن أبي تمـام أنه قال: لو كنت أعلم أنه سيعطيني علـى كل بيت لكنت زدت في القصيدة. وهي التي يقول فيها:

السَّيْفُ أصْدَقُ إنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

إلى أن يقول:

خَلِيفَةَ اللهِ، جَازَى اللهُ سَعْيَكَ عن ... جَرْثُومَةِ الدِّينِ وَالأَخْلاقِ وَالنَّسَبِ

إلى آخر ما قال.

وبالمناسبة، فإن عبد الله البرودني شاعر اليمن عارضه بقصيدة على وزن قصيدته، فيقول:

مَا أَقْبَحَ السَّيْفَ إنْ لَمْ يُمْضِهِ الْغَضَبُ ... وَأَكْذَبَ السَّيْفَ إنْ لَمْ يَصْدُقِ الْغَضَبُ

بِيضُ الصَّفَائِحِ أَهْدَى حِينَ تَحْمِلُهَا ... أَيْدٍ إذَا غَلَبَتْ فِي كفها الْغَلَبُ

وَأَقْبَحُ النَّصْرِ نَصْرُ الأَغْبِيَاءِ بِلا ... هَمٍّ سُوى كَمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسِبُوا

والشاهد ذيوع شعر هذا الشاعر الكبير.

ومما درج من الشعر وانتشر أبيات ليزيد بن معاوية وقيل: لخالد ابنه الأمير صاحب الكيمياء وهو لم يتولّ الخلافة ولكنه شاعر، يقول:

وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... لَكُنْتُ شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لي الْبُكَا ... بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وعلى ذِكْرِ ذلك يقولون: إنه قال هذه الأبيات في مكة ولم يذهب إلى الطائف، وكانت زوجته تبكي للفراق، فقال:

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... بِسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَنِي الْبُكَا ... بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وما دمنا في الطائف وحول مكة، فقد كان للحَجاج أخت اسمها زينب، ذهبت معتمرة مع وفد، أي: أخت الأمير، أمير العراق. فأخذت وفداً وحاشية ونزلت من الطائف على جبل نعمان تريد المناسك جهة عرفة، فرآها النميري الشاعر وكان بين الشجر، وهي مارّة ففاحت طيباً في الوادي لما مرت وضاع المسك، فقال:

تَضوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نُعْمَانَ أَمْ مَشَتْ ... بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ

تَهَادَين مَا بَيْنَ الْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى ... وَأَقْبَلْنَ لا شُعْثاً وَلا غُبِرَاتِ

يُخَبِّئْنَ أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ التُّقَى ... وَيَقتُلْنَ بِالأَلْحاظِ مُقتَدِرَاتِ

فَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ النُّمَيْرِي أَعْرَضَتْ ... وَأَصْبَحْنَ أَنْ يلْقِينَه حَذِرَاتِ

وضع نفسه موضعاً خطيراً وعنده موكب، شكاه الحجاج إلى عبد الملك فدعاه، قال: يا عدو نفسه، ما هو الركب الذي عندك؟! قال: والله - يا أمير المؤمنين- ما عندي إلا أتان. أي: حمار لا يساوي (٢٠٠درهم). فأعتقه وسامحه وشرط عليه ألا يتعرض للحرمات.

ومن الذيوع في الشعر ما يُحفظ للشاعر طُفَيْل الْغَنَوِي، فله ثلاثة أبيات- وقيل: أربعة- سارت وذاعت، حتى إن الشافعي أتى بها في السيرة، يرويها عن الشعبي. قال: لما اجتمع الصحابة ﷺ في سقيفة بني ساعدة، بعد وفاة سيد الخلق ﷺ يريدون اختيار خليفة. الأنصار ظنوا أن لهم من الأمر شيئاً، مع أن أمر الخلافة في قريش في عهد الرسول ﷺ، فاجتمعوا هنا، فحضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ﷺ فسكتهم عمر ﷺ فما سكتوا، يقول عمر: «زَوَّرْتُ كَلاماً فِي صَدْرِي- أي: جهّزت كلاماً في صدري وهيأته- وَكُنْتُ أُرَاعِي فِي أَبِي بَكْرٍ حِدَّةً، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَسَكَّتَنِي أَبُو بَكْرٍ فَسَكَتُّ، قال: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ بِكَلامٍ، وَاللَّهُ مَا تَرَكَ كَلاماً فِي صَدْرِي زَوَّرْتُهُ إِلاَّ أَتَى بِأَحْسَنَ مِنْهُ عَلَى الْبَدَاهة، قَالَ: أَيُّهَا الأَنْصَارُ، نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، نَحْنُ الشِّعَارُ وَأَنْتُمُ الدِّثَارُ، آسيتم ونَصَرْتُمْ وَآوَيْتُمْ وَكَفَيْتُمْ، وَاللهِ مَا مَثَّلْنَا وَمَثَّلْكُمْ- أَيُّهَا الأَنْصَارُ- إِلاَّ كَمَا قَالَ طُفَيْلُ الْغَنَوِي لَمَّا نَزَلَ فِي بَنِي جَعْفَرَ:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرَاً حَيْثُ أَشْرَفَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الشَّارِفِينَ فَزَلَّتِ

هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ[1] وَأَلْجَؤُوا ... إِلَى غُرُفَاتِ أُدْفِأَتْ وَأَظَلَّتِ

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ

وهذه القافية جميلة (ملّتِ، زَلّتِ). حتى إن كُثَيِّر عزة يقول:

هَنِيئَاً مَرِيئَاً غَيْرَ دَائِمِ مُخامِرِ ... لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

وأحد الشعراء أتى أميراً، فأعطاه جائزة، فقال:

رَأَى خلَّتِي مِنْ حَيْثُ يخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

يقول: رأى فقري وكنت أستر فقري، لكن الكريم يكتشف فقر الفقير وحاجة المحتاج، فنظر إلي حتى اكتشف خلتي.

فيقول: إنه لما رأى حاجتي وفقري لم ينم، وصارت قذى في عينه حتى فرَّج عني- فرَّج الله عنه.

وعلى هذا دعا سيف الدولة الحمداني أبا الطيب المتنبي الشاعر المشهور، فقال له: أعجبني بيت:

رَأَى خلَّتِي مِنْ حَيْثُ يخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

فزد عليه أبياتاً. فقال المتنبي على البداهة:

لَنَا مَلِكٌ لا يطْعِمُ الْغَمْضُ جِفْنَهُ ... مَمَاتٌ لِحَيٍّ أَوْ حَيَاةٌ لِمَيِّتِ

جَزَى اللهُ، عَنَّا سَيْفَ دَوْلَةِ هَاشِمٍ ... فَإِنَّ مَدَاهُ الْغَمْرِ سَيْفِي وَدَوْلَتِي

رَأَى خلَّتِي مِنْ حَيْثُ يخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

(١) هذا واقع الأنصار بالمهاجرين.

فهذا مما سارت به الركبان.

ومن أشهر شعراء الجاهليين عَدِي بن زيد، وله قصيدة بديعة، حتى إن الخليفة الناصر دعا ابن الجوزي الواعظ الكبير، وقال له: أكمل هذه القصيدة ولو كانت مجلدات. فأكملها بآلاف الأبيات، والتي يقول فيها عدي بن زيد:

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيِّرُ بِالدَّهْرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الْمَوْفُورُ؟

يقول: يا من يشمت بنكباتنا ويشمت بمصائبنا إذا حلت بنا، أأنت مبرأ ومعك صك غفران، فما تصيبك مصيبة ولا تأتيك نكبة؟ وإذا أتتنا نكبة تشمت بنا.

هَلْ رَأَيْتَ الْمَنَايَا خَلَّفْنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَبِيرُ؟

يقول: هل رأيت أحداً ما تكدر أو أُصيب؟ أرأيت في الخليقة إنساناً ما عَثَرَ؟ أرأيت في العالم إنساناً ما أُصيب ابنه، أو أصيب في أهله أو في جسمه؟ حتى يقول أحد الشعراء:

كُلُّ مَنْ لاقَيْتُ يَشْكُو دَهْرَهُ لَيْتَ شِعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ

يقول: مكدرة هي الدنيا. هذه قصيدته من أشهر ما قيل، يقول:

مَنْ رَأَيْتَ الْمَنَايَا خَلَّفْنَ أَمْ مَنْ ذا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضامَ خَفِيرُ
أَيْنَ كِسرى كِسرى المُلوكِ أَنوشِرْ وانُ أَم أَين قَبلَهُ سابُورُ

انتهوا كلهم. وهي قصيدة طويلة.

ولجمالها وذيوعها، فقد ذكروا أن عبد الله بن المبارك المحدث العابد الزاهد المجاهد مرّ فرأى قصر طاهر بن حسين في خراسان، وكان قصراً كبيراً مرتفعاً، فقال: والله إن قصيدة عدي بن زيد أحسن عندي من هذا القصر لو كان لي، وهي:

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيِّرُ بِالدَّهْرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الْمَوْفُورُ؟

وعدي بن زيد له أبيات، منها يقول- لما رأى بيوتاً وقصوراً، وقد مات ملوكها كالنعمان ومن كان معه-:

جَرَتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

يقول ﷻ عن الأمم والثقافات والحضارات السابقة والدول ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ولما مرَّ علي رضي الله عنه ببابل ورأى الدور، وإذا هي مهدمة كأن لم تغنَ بالأمس، قال:

جَرَتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

ويقول ابن بطوطة: إنه مرَّ بخراسان بمقبرة، فوجد في المقبرة لوحة مكتوب عليها: دُفِن في هذه المقبرة (١٠٠٠ ملك) من ملوك خراسان، ومكتوب عليها أيضا بيت شعر:

وَسَلاطِينُهُمْ سَلِ الطُّيُورَ عَنْهُمْ وَالرُّؤُوسُ الْعِظَامُ صَارَتْ عِظَامَا

وهذا مما شاع في الناس، وذاع حتى صار مضرب المثل.

ومطالع القصائد العربية هي مما شاع وذاع عند الناس؛ فامرؤ القيس قال:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وبعض المعاصرين يقول:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى كِتَابٍ مُنْزَلِ

لأن ذاك يجيد بُكاءَ الديار وذكر النوق ومرابع الصبا وملاعب الفتوة، والعرب إنما حنت للديار وللأوطان أكثر من أي حنين، ولذلك فشعر الأوطان مما يأخذ بالْجَنَانِ ومما يهيج الإنسان، وأحسن شيء عندي في الوطن هو قول ابن الرومي:

وَلِـي وَطَـنٌ آلَـيْـتُ أَلاَّ أَبِـيعَـهُ ... وَأَلاَّ أرى غَيْرِي لَهُ الدَّهْر مَالِكا
عَـهِـدْتُ بِـهِ شَـرْخَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً ... كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلالِكَا
وَحَـبَّـبَ أَوْطَـانَ الـرِّجَـالِ إِلَـيْـهِـمُ ... مَـعَـاهِـدُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
إِذَا ذَكَـرُوا أَوْطَـانَـهُـمْ ذكرتْهم ... عُهُودُ الصِّبَا منهُا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

وهـذا من شعر الأوطـان التي حن لها الشعراء إذا استقـروا، لكن بعضهم لا يستقر، تراه يتنقل من دار إلى دار ومن سكن إلى سكن، حتى يقول أبو تمام:

بِالشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وأنا ... بِالرَّقْمَتَينِ وبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي

وقد نظمت على موضوعها وقافيتها قصيدة، فقلت:

أَنَـا الْـحِـجَـازُ أَنَـا نَـجْـدٌ أَنَـا يَـمَـنٌ ... أَنَـا الْجَنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي
وَفِـي رُبَـى مَكَّةَ تَـارِيـخُ مَـلْـحَـمَـةٍ ... عَلَى ثَـرَاهَا بَنَيْنَا الْعَالَمَ الْفَانِي
فِي طَيْبَةَ الْمُصْطَفَى عُمْرِي وأُغْنِيتِي ... فِي رَوْضَةِ الْمُصْطَفَى عُمْرِي وَرِضْوَانِي
النِّيلُ مَائِي وَمِـنْ عَمَّانَ تَذْكِرَتِي ... وَفِي الْجَزَائِرِ إِخْوَانِي وَتَطْوَانِي
فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وأنا ... بِالرَّقْمَتَينِ وبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي
فَأَيْنَمَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ فِي بَلَدٍ ... عَدَدْتُ ذَاكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي
وَالْوَحْيُ مَدْرَسَتِي الْكُبْرَى وَغَارُ حِرَا ... تَارِيخُ عُمْرِي وَمِيلادِي وَرِضْوَانِي
وَثِيقَةٌ كُتِبَتْ فِي اللَّوْحِ وَانْهَمَرَتْ ... آيَاتُهَا فَاقْرَؤُوا- يَا قَوْمُ- قُرْآنِي

فهـذه أبياتهـم يوم سارت فـي الناس، حتى إنهـم اختلفوا في أجـود الأبيات وأفضلهـا، وكل يقول بحسـب معرفته؛ فمنهم من يقدم قـول جرير- يخاطب بني أمية عند عبد الملك-:

أَتَصْحُو[1] أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

فقال عبد الملك: بل فؤادك أنت. فزجره في أول الأبيات، فلما قال:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

قال عبد الملك: بلى، بلى. وأعطاه جائزة على ذلك.

ومما سارت به الركبان قول حسان- حتى إن الأصمعي يقول: هو من أفخر الأبيات. يقول ببدر-:

وَيَوْمِ بَدْرٍ إِذْ يَصُدُّ وُجُوهَهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا ومُحَمَّدِ

وحسان رضي الله عنه صاحب قافية وله أبيات ماتعة، حتى إنه إذا أراد أن يهجو المشركين أوصل إلى الكبد وكوى، أي: يُنَضج الكبد تنضيجاً راقياً مثل: الميسم.

طُوبَى لِمُعْتَرَكٍ مِنَ الآرَامِ تَسْقِي الضَّجِيعَ بِبَارِدٍ بَسَّامِ
إِنْ كُنْتِ كَاذِبَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي فَنَجَوْتِ مِنْ ذِي الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ

يقصد الحارث أخا أبي جهل، وكان قد فرَّ من بدر، فيقول:

تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَامِ

ولكن بعد ذلك أسلم الحارث بن هشام، وبعدها قُتِل شهيداً رضي الله عنه في اليرموك.

ومن أكثر الشعراء ذيوعاً وشيوعاً في شعرهم المتنبي، إذ إن شعره صار حكماً وروائع، ومن ذلك أنه يقول:

وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ

(١) هو يقصد نفسه، لكنه يكلم الخليفة، وهذا مما لا يصلح.

ولما تحدث عن الدنيا قال:

لَحَى اللهُ ذَي الدُّنْيَا مَنَاخاً لِرَاكِبٍ ... فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

ويقول عن الْحُسَّادِ:

سِوَى وَجْعِ الْحُسَّادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ ... إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

بل أتى بالقصيدة اللامية الأخرى، التي يقول فيها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

فلا بد من أن يُطَعِّم الْقصيدة بأبيات من الحكمة المؤثرة الخالدة في الناس، ولذلك استحق أن يكون ملك الشعراء في مسألة القافية، حتى إن ديوانه شُرِح أكثر من (٨٠ شرحاً) فقد مدح سيف الدولة بقصيدة رائعة، يقول فيها:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا ... وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا

هُوَ الْبَحْرُ خُضْ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِناً ... خُذِ الدُّرَّ وَاحْذَرْهُ إِذَا كَانَ مُزْبِدَا

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

فَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ومثل هذا يقول:

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ[1] وَالْعَوَالِي ... وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلا قِتَالِ

وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ ... فَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالأَرْزَاءِ حَتَّى ... فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِي

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي نِصَالٌ ... تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

---

(١) المشرفية: السيوف.

ثم يمدح ويقول:

وَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فهذا هو الشيوع والذيوع الذي انتشر عند بعض الشعراء؛ بسبب تجويدهم للكلمة والعبارة، وهذا من فضل الله ﷻ.

obeikandl.com

obeikandl.com

املؤوا فمه درًّا

كلمة عند أهل الأدب مشهورة يقولها الخلفاء والوزراء والأمراء للشاعر إذا أجاد، يقول: املؤوا فمه دراً. أي: فوق الجائزة. إذا بلغ بالسامع الوزير الأمير الملك مبلغه من الإعجاب بهذا الشاعر، ومن مُلِئَت أفواههم دراً عبر تاريخ الأدب أربعة أو خمسة فقط؛ لأنه قلّ أن يأتي شاعر ببيت ساطع لامع يمكن أن يخلع قلب الخليفة؛ لأن السحر الحلال هو الأدب، ولذلك «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**».

أذكر على سبيل المثال أبا نواس الشاعر الكبير، وهو مدرسة بلا شك، مدح الوزراء في عهد بني العباس.

وله قصة مع علي بن موسى الرضى. فأول ما تولى المأمون كان ولي عهده علي بن موسى الرضى من بيت الرسول ﷺ من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لكن بني العباس ما تحملوا ذلك، لكن المأمون مائل لأهل البيت أكثر، فأتى بعلي بن موسى الرضى فجعله ولي عهده، وعلي بن موسى هذا كان قد ذهب إليه الشاعر دعبل الخزاعي في خراسان وألقى قصيدته التائية التي يقول فيها:

بَنَاتُ زِيَادٍ فِي الْقُصُورِ ذَوَاعِمٌ ... وَآلُ رَسُولِ اللهِ فِي الْفَلَوَاتِ

إِذَا وُتِرُوا مَدُّوا إِلَى وَاتِرِهِمْ ... أَكُفّاً عَلَى الأَوْتَارِ مُنْقَبِضَاتِ

ينعى فيها آل البيت، حتى يقول:

قُبُورُ عَلِيٍّ والْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ ... وَحَمْزَةَ والسَّجَّادِ ذي النَّفَثَاتِ

وقَبْرٌ بِبَغْدَادَ لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ ... تَضَمَّنَها الرَّحْمنُ فِي الْغُرُفَاتِ

فأُغْمِي على علي بن موسى الرضى من هول القصيدة وقوتها وسقط من على كرسيه.

وأبو نواس مدح الوزراء والأمراء ونسي ولي العهد وهو من أهل البيت، فجاء العلماء وقالوا: تمدح فلاناً وتمدح فلاناً وتنسى ولي العهد هذا؟! وكان ما ترك أحداً إلا مدحه حتى بائع الجرجير مدحه. فنظم أبياتاً قوية مؤثرة، فذهب يعتذر عند علي بن موسى، قال:

قِيلَ لِي [1]: أَنْتَ وَاحِدُ النَّاسِ فِي ... كُلِ مَعْنًى مِنَ الْكَلامِ بَدِيهِي

(١) يقصد نفسه ويمدحها.

فيقول: إن الناس قالوا: إني صاحب كلمات، وإني وحيد في العبارات، وإني أطلق اللفظ إذا أردت.

لَكَ فِي جَوْهَرِ الْكَلامِ بَدِيعٌ ... يَثْمرُ الدُّرُّ في يَدَيْ مُجْتَنِيهِ

فَعَلامَ تَرَكْتَ مَدْحَ ابْنِ مُوسَى ... بِالْخِصَالِ الَّتِي تَجَمَّعْنَ فِيهِ

قُلْتُ: كَيْفَ أَهْتَدِي لِمَدْحِ إِمَامٍ ... كَانَ جِبْرِيلُ صَاحِباً لأَبِيهِ

فانظر إلى هذه العبارات، حتى يقول الصوري: أجزم جزماً أنه لم يُمْدَح أحدٌ بمثل هذه. فقال: املؤوا فمه دراً. لأنه أجاد إجادة فوق اللازم؛ حيث يقول: أنا أمدح الناس العاديين، أما أنت فجدك ﷺ صاحب جبريل، فأنتم شيء آخر؛ نبوة ورسالة ولا أستطيع أن أمدحك، فدعنا نمدح التجار والعمال والموظفين.

والموحدون هم الذين قاموا في المغرب وأسسوا دولتهم، ومن أشهر ملوكهم عبد المؤمن بن علي، كان يقول: أصولنا ثلاثة: القرآن، وسنن أبي داود، وهذا السيف. فلا أنصاف حلول، وأخذ كتب الفقه والأصول المالكية وأحرقها بالنار، وقال: عودوا إلى الكتاب والسنة. هذه وجهة نظره في الباب، وشجعه بعض العلماء على هذا، الشاهد أنه أتى شاعر يمدحه، يريد أن يمتدح عبد المؤمن بن علي صاحب التصميم والعزيمة، الذي يخافه الناس رهبة وكل كلماته مؤثرة في القتال وفي الحروب وفي العلم وفي المعرفة، وقال:

قَدَّتْ فُؤَادِي مِنَ الشُّبَّاكِ إِذْ نَظَرَتْ ... وَرْقَاءُ جَادَتْ مِنَ الشُّبَّاكِ بِالْمُقَلِ

كَأَنَّ فَتكَتَهَا فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا ... ضَرْبُ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِي

قال: غيّر القصيدة. أي: غيّر هذا المطلق. ما تَطَلَّع على الشباك وورقاء ونظرت ورأيناها وسقطت وخافت.

فقال الشاعر:

مَا هَزَّ عِطْفَيْهِ بَيْنَ الْبِيضِ وَالأَسَلِ ... مِثْلُ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِي

قال: امسح القصيدة وأبقِ هذا البيت، واملؤوا فمه دُرّاً. فقوله هذا معناه أن من عادة السيوف والرماح أن تلوح بين الصفين في المعركة، وما لاحت في يد أحد مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي.

وممن مُلِئَ فمه درّاً عمارة اليمني، وكان من أشهر الشعراء على الإطلاق، وهو من درجة المتنبي، سافر من مكة إلى الفاطميين في مصر، يقول:

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ ... مَا سِرْتُ إِلاَّ مِنْ حَرَمٍ إلا إِلَى حَرَمِ

حَيْثُ الْخِلافَةُ مَبْسُوطٌ صَوَادِقُهَا ... تَجْنِي الْبَغِيضَيْنِ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلَمِ

وَلِلرِّسَالَةِ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ ... تُبْدِي الْحَبِيبَيْنِ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حِكَمِ

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا ... عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

يقول: ليت النجوم تنزل علينا قليلاً، فأنظمها قصائد وأعطيكم إياها. القصيدة رائعة بلا شك، لكنه أتى بقصيدة أخرى يمدح فيها الفائز الحاكم الفاطمي في مصر، يقول:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ [1] وَخَرَجْتُ مِنْ ... أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُلُوكُ يَمِينِي

هذا نفاق اجتماعي مبالغ فيه يريد الجائزة، قال: امحُ القصيدة واترك هذا البيت واملؤوا فمه درّاً. هذا هو عمارة اليمني، قتله صلاح الدين الأيوبي؛ لأنه أراد مع بعض الناس إعادة دولة الفاطميين، الدولة المنحرفة عن الجادة، وأن يعادي السلطان العادل والإمام الحق صلاح الدين الأيوبي الكردي الذي نصر

(١) أي: قبّلت.

الله به الإسلام، فاستحق الإعدام، فَأُعدم هذا الشاعر، وكلهم سوف يذهبون إلى الله ﷻ؛ القاتل والمقتول فهو ﷻ أحكم من يعدل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

جلس المتوكل ليلة من الليالي ولبس برد الرسول ﷺ الذي توارثه خلفاء بني العباس، فقال: من يصف هذا المشهد وأنا لابس البرد؟ وكان الشعراء جلوساً، فقام أحدهم وقيل: هو ابن الشجري. وقيل غيره. فقال:

وَلَوْ أَنَّ بُرْدَ الْمُصْطَفَى إِذْ لَبِسْتَهُ ... يَظُنُّ لَظَنَّ الْبُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهْ

وَقَالَ - وَقَدْ أُوِيتَهُ وَلَبِسْتَهُ- : نَعَمْ، هَذِهِ أَعْطَافُهُ وَمَنَاكِبُهْ

قال: املؤوا فمه دراً.

وسرعة البداهة موهبة من الله، وبالمناسبة فإن أبا جعفر المنصور أشهر خلفاء بني العباس، خرج للسير والنزهة، وقال للشعراء - وكان معه ما يقرب من ثلاثين شاعراً منهم بشار بن برد -: مَن يُجِيز هذا البيت الذي أقول ويأتي ببيت على البحر والقافية وأعطيه هذا البرد الذي عليَّ؟ قالوا: قل يا أمير المؤمنين.

فقال:

وَهَاجِرَةٍ وَقَفْتُ بِهَا قُدُوصِي ... يُقَطِّعُ حَرُّهَا ظَهْرَ الْعَضَايَهْ [1]

فسكت الشعراء، فقالوا: أعد يا أمير المؤمنين. فقال:

وَهَاجِرَةٍ وَقَفْتُ بِهَا قُدُوصِي ... يُقَطِّعُ حَرُّهَا ظَهْرَ الْعَضَايَهْ

معنى هذا البيت: ما أشد هذه الهاجرة وهذه الظهيرة التي نحن فيها! شدة النهار التي وقفت بها أنا وناقتي، حتى لو كان هذا الحر على ظهر السلحفاة - مع

(١) العضاية: قيل: السلحفاة. وقيل نحوها.

أن ظهرهـا شديـد قوي- لقطعها، فكيـف أنا؟! فقالوا: أعد. فلمـا أعاد جثوا على رُكَبِهم أيهم يرد أولاً. فقال أحدهم:

وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصَ فَفَاضَ دَمْعِي عَلَى خَـدِّي فَأَقْصَـرَ وَاعِظَـايَ

فأعطـاه أبو جعفـر البرد، فشراه بنو العباس بألف دينـار منه وأخذوا البرد؛ برد الخليفة.

وممـن مُلِـئَ فمه دراً أحد الشعراء، مدح جعفر بن فلاح وهو قائد فاطمي من قادة الفاطميين، لقيه الشاعر، فقال:

كَانَتْ مُحَادَثَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنَا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلاحٍ أَرْوَعَ الْخَبَرِ
حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلا وَاللهِ ما سَمِعَتْ أُذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي

يقـول: كنا نسمـع عنك ولمـا التقيتنا كنت أكبـر. وهذا من ترتيـب الألفاظ الجميلة، ومما يعجبني في ذلك أبيات نظمها أحد العلماء من أهل الحديث، وبعض أهل الحديث يُرزق مع العلم شعراً، ومنهم أبو وردي المحدث الكبير، كان شاعراً من درجة المتنبي بلا مبالغة، وهو الذي يقول:

تَسَتَّرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَو تَسْأَلُ الأَيَّامَ عَنِّي مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

وأحد المحدثين من الشعراء يقول:

مَنْ زَارَ بَابَكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ تَرْوِي أَحَادِيثَ مَا أُوْرِيتَ مِنْ مِنَنِ
فَالْعَيْنُ عَنْ قُرَّةٍ وَالْكَفُّ عَنْ صِلَةٍ وَالْقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ وَالسَّمْعُ عَنْ حَسَنِ

فهؤلاء رواة حديث، مثل: قرة بن خالد المشهور، وصلة بن الأشين عالم كبير، وجابر بن عبد الله «الصحابي المشهور» والحسن البصري. فنظمهم؛ لأنهم في السند.

وممـن مُلِئ فمه دراً شاعـر يقال له: تميم الأمير. وكان تميم أميراً جواداً من أكبـر الأمراء على الإطـلاق، فيقولون: تميم بن دُبيس، أو غيـره. يقول فيه شاعر عارف بعلم السند:

أَصَحُّ وَأَعْلَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى ... مِنَ الْأَثَرِ الْمَعْرُوفِ مُنْذُ قَدِيمِ

أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَا ... عَنِ الْغَيْثِ عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمِ

فَأجازه جائزة، وقال: املؤوا فمه دراً.

وصارت شهرة لهؤلاء؛ لأنهم خلدوا شعرهم فيمن مدحهم.

وزهير من أعظم من مدح آل هرم بن سنان، حتى يقول:

مَـا كَـانَ مِـنْ خَيْـرٍ أَتَـوْهُ فَإِنَّمَـا ... تَـوَارَثَـهُ آبَـاءُ آبَـائِـهِـمْ قَـبْـلُ

وَهَـلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيُّ إِلاَّ وَشِيجهُ ... وتُغْرَسُ إِلاَّ فِي مَغَارِسِها النَّخْلُ

وهـذا أولى أن يُملأ فمه دراً؛ لأنه قال فيهم كلمة صادقة، وما كان يقول فيهم إلا الحـق. واختلف أهل الأدب عند الأصمعي وغيـر الأصمعي، تراه يفضل النابغة الذبيانـي على زهير، على أن زهير عاقل حكيـم، لكن النابغة مؤثر في شعره، قيل للأصمعـي: أيهمـا أشعر زهيـر أو النابغة؟ قـال: النابغة، النابغـة إن قلت: شعره حرير فهو حرير، وإن قلت: ألين من الحرير فألين من الحرير، وإن قلت: أقوى من الحديد فأقوى من الحديد. ومن ذلك قوله:

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِي[1] ... وَتِلْكَ الَّتِي أَهتمّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

فَبِتُّ كَـأَنَّ الْغَانِيَاتِ فَرَشْـنَ لِي ... هَرَاساً بِه يَعْلُو فِرَاشِي وَيَقْشُبُ

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْـرُكْ لِنَفْسِك رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

(١) يقصد النابغة الذبياني.

وَإِنْ بَلَّغَ الْوَاشُونَ عَنِّي وِشَايَةً لَمُبْلِغُكَ الوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ؟!

هذا البيت الأخير مؤثر وبديع وهو رسالة اجتماعية، يقول: لن يبقى لك صديق ما دمت لا تقبله على زلاته، تقبله على علاته، تقبله على الأخطاء فيه.

تلمه على شعث، أي: تتستر عليه وتحاول أن تُصلح ما بينك وبينه. ثم قال: أي الرجال مذهب؟ هل رأيت عوداً يفوح بلا دخان؟! هل رأيت إنساناً معصوماً؟! إلا الأنبياء -عليهم السلام-.

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطْ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ

ومن ذلك قول الشاعر بشار بن برد:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقَذَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُه؟
إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِباً صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لا تُعَاتِبُه

فينبغي للإنسان أن يغض الطرف عن صاحبه وصديقه، ويقبله على زلّله وعلى علله؛ ليستمر، أما أن تريد مذهباً لا عيب فيه، فهل عود يفوح بلا دخان؟!

حتى إن لهم أيماناً فاجرة وبارّة؛ فامرؤ القيس يمينه فاجرة عند الأدباء والحكماء؛ لأنه يقول:

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ لَنَامُوا فَمَاءٍ مِنْ حَدِيثٍ وَلا صَالِ

في لاميته التي فضلها الزمخشري على لاميته المعلقة، التي من ضمن أبياتها يقول:

أَلا عِمْ صَبَاحاً - أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي - وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

وَهَـلْ يَعِمَن إلاَّ سَعِيدٌ مُنَعَّمٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ
حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ لَنَامُوا فَمَاءٍ مِنْ حَدِيثٍ وَلا صَالِ

هذه اليمين الفاجرة، أما اليمين البارة، فهي من النابغة الذبياني، حيث يقول:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
وَإِنْ بَلَّغَ الْوَاشُونَ عَنِّي وِشَايَةً لَمبلغك الواشي أغشّ وَأَكْذَبُ

أي: إن الذي بلغك كذاب؛ لأنه يريد الإفساد بينك وبيني، ولو كان حكيماً لبلغك حسناً، فأول المغتابين لك والسابين لك هو من بلغك الوشاية ومن بلغك السب من صاحبك، فمن بلغك السب فكأنما سبك، ومن بلغك الشتم فكأنما شتمك، والواجب في الشرع أن تُكَذِّبه وأن تتثبت من الأخبار ولا تقبل روايته؛ لأنه ما أراد إلا السوء والإفساد. حتى إنه ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. فمنطق الإسلام التبين والتغافل عن زلات الإخوان؛ حتى يصلح الحال، فكن كأنك لم تسمع ولم يقل.

أما إكرامات الشعراء فتختلف من شاعر إلى شاعر بحسب ما أُوتي، وقيل: من أكبر الجوائز هي جائزة علي بن جبلة لأبي دُلَف. لأن أبا دلف لما سمع قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلَفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهْ

قال: أُخَيِّرُك في ثلاث: أن تقاسمني في الإمارة، أو تحتكم أنت، أو أن أعطيك على كل بيت (١٠٠٠٠٠ درهم). قال: أعطني على كل بيت (١٠٠٠٠٠ درهم)؟. فأخذ المال، ثم قتله المأمون؛ بسبب هذه القصيدة.

والعجيب أن أبـا منصور الحاجب أعطى المتنبي ديناراً على قصيدته، وكان هذا بخيلاً جداً، فمدحه المتنبي بأحسن قصائده، يقول:

بأبِي الشُّمُوسِ الجَانِحَاتِ غَوَارِبَا اللاَّبِسَاتِ مِنَ الْخُدُودِ جَلابِبَا

ثـم يقـول: فسموك الأبـي الحاجب. يقصـد الحاجب أعطاه دينـاراً فتُسمى هذه القصيـدة: الدينارية. وهي من أحسن قصائده لكن البخل عند بعض الناس بالعطاء طبع.

مدائح نبوية

رسول الهدى ﷺ بأبي هو وأمي أجل من خلق الله، وأكرمهم وسيدهم وخيرهم، ولكنه ﷺ يقول لأمته: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». لكنه يثنى عليه ﷺ بالمكارم، وقد أثنى عليه ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وهناك مدائح نبوية حفظها لنا تاريخ الأدب العربي، بدأها كعب بن زهير الذي عاصر رسول الهدى ﷺ يقول فيها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

ثم قال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

إلى آخر القصيدة، التي أُطلق عليها اسم «البردة»؛ لأنه يُروى في السياق أن الرسول ﷺ خلع بردته لزهير رضي الله عنه؛ لما قال هذه القصيدة.

وفي عهده ﷺ مُدِحَ، حتى إن هناك بيتين يتيمين شاردين من قوتهما يقول صاحبهما:

يَا مَنْ تَضَوَّعَ طِيبُ الْقَاعِ أَعْظُمَهُ ... فَطَابَ مِنْ طِيبِ ذَاكَ الْقَاعِ وَالأَشَمِ

نَفْسِي الْفِدَاءُ بِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ ... فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

ثم استمر الشعراء في مدائحهم للرسول ﷺ، حتى أتى البُوصيري لكنه غالى في المدح، فقصيدته من حيث الجمال الفني، ومن حيث التركيب البلاغي، ومن حيث الفصاحة مشرقة فصيحة جداً، يقول:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ ... مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ ... وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا ... وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفِقْ يَهِمِ

ومدح رسول الله ﷺ، ثم جاء أحمد شوقي وسمى قصيدته: نهج البردة. التي مطلعها:

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ ... أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ

رَمَى الْقَضَاءُ بِعَيْنَيْ جُؤْذَرٍ أَسَداً ... يَا سَاكِنَ الْقَاعِ، أَدْرِكْ سَاكِنَ الأَجَمِ

إلى أن يقول في مدح سيد الخلق ﷺ:

أَسْرَى بِكَ اللهُ لَيْلاً إِذْ مَلائِكُهُ ... وَالرُّسْلُ فِي الْمَسْجِدِ الأَقْصَى عَلَى قَدَمِ

لَمَّا خَطَرْتَ بِهِ الْتَفُّوا بِسَيِّدِهِمْ ... كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ

حَتَّى بَلَغْتَ مَكَاناً لا يُطَارُ لَهُ ... عَلَى جَنَاحٍ وَلا يُسْعَى عَلَى قَدَمِ

وَقِيلَ: كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ ... وَيَا مُحَمَّدُ، هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ

مَوْلايَ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أَرَدْتَ عَلَى ... نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرِ الرُّسْلِ كُلِّهِمِ

وهي طويلة، وأجمل منها قصيدة البوصيري.

وقد نظمت قصيدة اسمها: تاج المدائح فيه ﷺ من ضمن أبياتها على البحر والقافية:

أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةٍ جَاءَتْكَ مِنْ أَمَمٍ ... مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي نُونِ وَالْقَلَمِ

سَالَتْ قَرِيحَةُ صَبٍّ فِي مَحَبَّتِكُمْ ... فَيْضاً تَدَفَّقَ مِثْلَ الْهَاطِلِ الْعَمِمِ

يُزْرِي بِنَابِغَةِ النُّعْمَانِ رَوْنَقُهَا ... وَمَنْ زُهَيْرٌ وَمَاذَا قَالَ فِي هَرِمِ؟

مِيمِيَّةٌ لَوْ فَتَى بُوصِيرَ أَبْصَرَهَا ... لَعَوَّذُوهُ بِرَبِّ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ

مَا زَارَ سُوقَ عُكَاظٍ مِثْلُ طَلْعَتِهَا ... هَامَتْ قُلُوبٌ بِهَا مِنْ رَوْعَةِ النَّغَمِ

أُثْنِي عَلَى مَنْ؟ أَتَدْرِي مَنْ أُبَجِّلُهُ؟ ... أَمَا عَلِمْتَ بِمَنْ أَهْدَيْتُهُ كَلِمِي؟

فِي أَثْبَتِ النَّاسِ قَلْباً غَيْرِ مُنْتَقِمٍ ... وَأَصْدَقِ النَّاسِ لَفْظاً غَيْرِ مُتَّهَمِ

قَحْطَانُ عَدْنَانُ شَادُوا مِنْكَ عِزَّتَهُمْ ... بِكَ التَّشَرُّفُ لِلتَّارِيخِ لا بِهِمِ

عُقُودُ نَصْرِكَ فِي بَدْرٍ وَفِي أُحُدٍ ... وَعَهْدُنَا فِيكَ لا فِي هَيْئَةِ الأُمَمِ

مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلاَّ نُقْطَةٌ غَرِقَتْ ... فِي الْيَمِّ أَوْ دَمْعَةٌ خَرْسَاءُ فِي الْقِدَمِ

أَكَادُ أَقْتَلِعُ الآهَاتِ مِنْ حُرَقٍ ... إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعُ مِنْ نَدَمِ

إِنْ كَانَ أَحْبَبْتُ بَعْدَ اللهِ مِثْلَكَ فِي ... بَدْوٍ وَحَضْرٍ وَفِي عُرْبٍ وَفِي عَجَمِ
فَلا اشْتَفَى نَاظِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ ... وَلا تَفَوَّهَ بِالْقَوْلِ السَّدِيدِ فَمِي

الرسول ﷺ يجمع في مدحه الدواوين والكتب والمجلدات من القصائد التي مُدِحَ بها ﷺ، وقام بعض الأدباء بجمع القصائد فأربت على المئات إلى خمس مئة، وربما لو جُمِعَت لصارت أكثر من ألف قصيدة خلاف المقطوعات والأبيات، ومن أحسن ما مُدِحَ به سيد الخلق ﷺ قصيدة لعبد الله البردوني شاعر اليمن، في قصيدة يتكلم فيها عن الغار، لكنها بسمو وبجمال وبقوة، وهو من أكبر الشعراء المعاصرين، يقول:

بُشْرَى مِنَ الْغَيْبِ أَلْقَتْ فِي فَمِ الْغَارِ ... وَحْياً وَأَفْضَتْ إِلَى الدُّنْيَا بِأَسْرَارِ
بُشْرَى النُّبُوَّةِ طَافَتْ كَالشَّذَا سَحَراً ... وَأَعْلَنَتْ فِي الدُّنَا مِيلادَ أَنْوَارِ
وَشَقَّتِ الصَّمْتَ وَالأَنْسَامُ تَحْمِلُهَا ... تَحْتَ السَّكِينَةِ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارِ
وَهَدْهَدَتْ مَكَّةَ الْوَسْنَى أَنَامِلُهَا ... وَشَقَّتِ الْكَوْنَ إِيذَاناً بِإِسْفَارِ
فَأَقْبَلَ النُّورُ مِنْ خَلْفِ التِّلالِ وَفِي ... عَيْنَيْهِ أَسْرَارُ عُشَّاقٍ وَسُمَّارِ
وَشَبَّ طِفْلُ الْهُدَى الْمَحْبُوبُ مُتَّشِحاً ... بِالْخَيْرِ مُتَّزِناً بِالنُّورِ وَالنَّارِ
فِي كَفِّهِ شُعْلَةٌ تَهْدِي وَفِي دَمِهِ ... عَقِيدَةٌ تَتَحَدَّى كُلَّ جَبَّارِ
أَعْلَى الْمَنَاصِبِ مَا حَاكَتْ لِصَاحِبِهَا ... مِنَ الْعُلا وَالْمَعَالِي نَصْبَ تَذْكَارِ
طَهَ إِذَا ثَارَ إِنْشَادِي فَإِنَّ أَبِي ... حَسَّانُ أَخْبَارُهُ فِي الشَّامِ أَخْبَارِي
أَنَا ابْنُ أَنْصَارِكَ الْغُرِّ الأُلَى سَحَقُوا ... جَيْشَ الطُّغَاةِ بِجَيْشٍ مِنْكَ جَرَّارِ
إِذَا تَذَكَّرْتَ عَمَّاراً وَسِيرَتَهُ ... فَافْخَرْ بِنَا؛ إِنَّنَا أَحْفَادُ عَمَّارِ

والزبيري له قصيدة في مدحه ﷺ مطلعها:

السَّمَاوَاتُ شَيِّقَاتٌ ظِمَاءُ ... وَالْفَضَا وَالنُّجُومُ وَالأَنْوَاءُ
كُلُّهَا لَهْفَةٌ إِلَى الْمُصْطَفَى الْهَادِي ... وَشَوْقٌ وَعِزَّةٌ وَثَنَاءُ

وقد نظمتُ على قافية هذه القصيدة قصيدة قلت فيها:

أَيُّهَا الشِّعْرُ أَنْتَ، أَنْتَ الْحِدَاءُ ... غَنِّ شِعْرًا تُصْغِي إِلَيْهِ السَّمَاءُ
قُدْتَ لِلْحَقِّ سَاطِعًا يَفْضَحُ الْبُهْ ... تَانَ فَالْحَقُّ عِزَّةٌ شَمَّاءُ

وهناك شاعر من سوريا مشهور اسمه عبد الهادي حرب، مدح سيد الخلق ﷺ بقصيدة من ضمنها يقول:

إِنَّ الْبَرِيَّةَ يَوْمَ مَبْعَثِ أَحْمَدٍ ... نَظَرَ الإِلَهُ لَهَا فَبَدَّلَ حَالَهَا
بَلْ كَرَّمَ الإِنْسَانَ حِينَ اخْتَارَ مِنْ ... خَيْرِ الْبَرِيَّةِ نَجْمَهَا وَهِلالَهَا
لَبِسَ الْمُرَقَّعَ فَهْوَ قَائِدُ أُمَّةٍ ... جَبَتِ الْكُنُوزَ فَكَسَّرَتْ أَغْلالَهَا
لَمَّا رَآهَا اللهُ تَمْشِي نَحْوَهُ ... لا تَبْتَغِي إِلاَّ رِضَاهُ سَعَى لَهَا
أَنْتَ الشُّجَاعُ إِذَا لَقِيتَ كَتِيبَةً ... أَدَّبْتَ فِي هَوْلِ الرَّدَى أَبْطَالَهَا
وَإِذَا وَعَدْتَ وَفَيْتَ فِيمَا قُلْتَهُ ... لا مَنْ يُكَذِّبُ قَوْلَهُ أَفْعَالُهُ

فهو ﷺ ممدوح في ذلك، وإنما أقف مع المدح من ذكريات إسلامية مع سيد الخلق ﷺ، فقد أتاه رجل اسمه الأسود بن سريع، قال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي نَظَمْتُ قَصِيدَةً أُثْنِي بِهَا عَلَى رَبِّي. فَقَالَ ﷺ: أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ**». ولذلك كان ﷺ يحب أن يكون المدح في ربه، فالله أهل أن يُمدح وأهل أن يُشكر وأن يحمد ﷻ، وأهل أن يُبجل لا إله إلا هو، حتى إنه ﷻ مدح نفسه، وعند مسلم: «**لا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ**». فالرسول ﷺ كان يسمع المدح، حتى إن ابن رواحة رضي الله عنه قال:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ

وقال في قصيدة أخرى:

فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْراً كَالَّذِي نُصِرُوا

قال ﷺ: «وَإِيَّاكَ فَثَبَّتَ». وجاءه ﷺ النابغة، نابغة بني جعدة، فأتى بمدح قومه؛ ليتوصل لمدح الرسول ﷺ، فقال:

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيجُ عَلَى الْفَتَى ... وَمِنْ عَادَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا ... وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال ﷺ: «إِلَى أَيْنَ - يَا أَبَا لَيْلَى؟ قَالَ: إِلَى الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ ﷺ: «لَا فُضَّ فُوكَ». فعاش مئة سنة ما سقط له سن ولا ضرس؛ من فضل وبركة دعاء الرسول ﷺ، وكان يسمع الشعر ويأبى الغلو ﷺ لكنه يسمعه ويقول: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً». ويسمع لحسان رضي الله عنه.

ولما جاءه وفد بني تميم وكانوا ما يقارب العشرة، وقيل: أكثر. وكان خطيبهم عمرو بن الأهتم وشاعرهم الزبرقان بن بدر، ومعهم قيس بن عاصم الْمُنْقَري حليم العرب، فقدموا فقالوا: نريد أن نُفَاخِرَك. وعادة العرب إذا قدموا على الملوك أنهم يُفاخرون، وكل قبيلة تُفاخر، فأذن لهم ﷺ ودُعوا في المسجد وخطيبهم، ودُعِي خطيب الرسول ﷺ الذي هو ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه فتكلم خطيبهم وكان مصقعاً وهو عمرو بن الأهتم، فلما انتهى قال ﷺ: «قُمْ - يَا ثَابِتُ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ - فَرُدَّ عَلَيْهِمْ». وهو الأنصاري الذي قُتِل شهيداً في اليمامة، فقام فأتى بكلام كأنه صواعق من على المنبر، حتى غلبه، فقام شاعرهم الزبرقان بن بدر، وقال القصيدة، حتى إنه قال:

مِنَّا الْمُلُوكُ فَلَا حَيٌّ يُضَارِعُنَا ... مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبِيَعُ

إلى آخر ما قال، فقال ﷺ: «قُمْ يَا حَسَّانُ». فقام حسان في الحال مباشرة على البداهة، وقال - في قصيدة طويلة -:

إنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ عَقِيدَتُهُ ... تَقْوَى الإِلَهِ وَبِالأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا

قَومٌ إِذا حارَبوا ضَروا عَدُوَّهُمُ ... أَو حاوَلوا النَفعَ في أَشياعِهِم نَفَعوا

إلى أن يقول:

كَأَنَّهُم في الوَغى وَالمَوتُ مُكتَنِعٌ ... أُسْدٌ بِبِيشَةَ في أَرْساغِها فَدَعُ

سَجِيَّةٌ تِلكَ مِنهُم غَيرُ مُحدَثَةٍ ... إِنَّ الخَلائِقَ حَقّاً شَرُّها البِدَعُ

لا يَرقَعُ الناسُ ما أَوهَت أَكُفُّهُمُ ... عِندَ الدِفاعِ وَلا يُوهونَ ما رَقَعوا

إلى آخر ما قال.

فقالوا: «غَلَبَ شَاعِرُكَ شَاعِرَنَا وَخَطِيبُكَ خَطِيبَنَا». وحسان رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ. وكان الرسول ﷺ يقرب له المنبر ويقول عن المشركين: «اهْجُهُمْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ يُؤَيِّدُكَ». وحسان رضي الله عنه لما قال له: «كَيْفَ أَنْتَ يَا حَسَّانُ؟». أي: هل تستطيع للمشركين مجابهة بالرد؛ لأن رد الشعر بالشعر والأدب بالأدب والحجة بالحجة، فأخرج حسان رضي الله عنه لسانه وضرب أرنبة أنفه، وقال: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَعِي هَذَا لَوْ وَضَعْتُهُ عَلَى حَجَرٍ لَفَلَقَهُ وَلَوْ وَضَعْتُهُ عَلَى شَعْرٍ لَحَلَقَهُ». فكان حسان رضي الله عنه من أجود الناس شعراً هو، وحسان عند الملوك الغساسنة قبل الإسلام يذهب إلى الغساسنة حتى يحن لتلك الأيام والديار، لكن أبدله الله عز وجل بخير من ذلك، الإسلام ومحمد سيد الخلق ﷺ، لكن من وفائه يعترف لهم بأنهم أهل كرم في غسان في الشام، فيقول:

لله دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ ... يَوْمَاً بِجِلَّقَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ
أَبْنَاءُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمُ ... قَبْرِ ابْنِ مَارِيَّةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلابُهُمْ (١) ... لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
الضَّارِبُونَ الْكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضَةً (٢) ... ضَرْبَاً يُطِيحُ لَهُ بَنَانُ الْمِفْصَلِ

حتى على مذهب النابغة يقول عن عمرو بن هند، وقيل: عن النعمان:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
تُوُرِّثْنَ مِنْ أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ ... إِلى اليَومِ قَد جُرِّبْنَ كُلَّ التَجارِبِ

لأن العرب إذا مدحوا الإنسان مدحوه بأمه أو بجدته، ومن ذلك قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

وَمَا كَعْبُ بْنُ أُمَامَةَ وَابْنُ سَعْدٍ ... بِأَكْرَمَ مِنْكَ يَا عُمَرُ الْجَوَادَا
تَعَوَّدَ صَالِحَ الأَخْلاقِ إِنِّي ... رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَلْزَمُ مُسْتَعَادَا

فقال في القصيدة: يا ابن ليلى. وابن ليلى هو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لأن ليلى هي أمه فهم يمدحون هذا بهذا، ولهذا يقول:

تُوُرِّثْنَ من أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ ... إِلى اليَومِ قَد جُرِّبْنَ كُلَّ التَجارِبِ

إذا عُلِمَ هذا فالرسول ﷺ قد مدحه ربه، وأغناه مدح الله عز وجل عن مدح كل أحد حتى قال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وزكّى سمعه وزكى بصره وزكى منهجه ورسالته ودعوته، وقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ

(١) أي: من كثرة الضيوف تعبت كلابهم فصارت لا تنبح، تعودت الناس.
(٢) الكبش، أي: سيد القتال، أو سيد الكتابة يبدؤون به في المعركة. فوصفهم بالكرم وبالشجاعة.

﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ١ - ٣]. وقال له: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وذكر دعوته ومنهجه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإذا عُلِمَ هذا فإنه لا ينبغي أن يُمدح ﷺ بأكثر مما أقامه ربه ﷻ من المنزلة، أو يُغالى فيه بأن يقال: شافني أو عافني.

ومن ذلك أن البرعي من اليمن، لما وصل إلى قبر رسول الله ﷺ قال:

يَا رَسُولَ اللهِ يَا مَنْ ذِكْرُهُ ... فِي نَهَارِ الْحَشْرِ رَمْزاً وَمُقَامَا

فَأَقِلْنِي عَثْرَتِي يَا سَيِّدِي ... .

وهذا شرك لا ينبغي؛ لأنه ﷺ لا يُحيي ولا يميت ولا يشافي ولا يقيل العثرة ولا يغفر الذنوب، إنما هو مبلغ ﷺ عن ربه، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ويذكر ابن العربي الصوفي - يُذكر عن بعض المشايخ - يقول: أتيت المدينة فدخلت، فلما اقتربت فسلمت فمددت يدي فانشق القبر وسلم علي ﷺ وصافحني. وهذا كذب، حتى إنه نظم في ذلك بيتين، فقال:

فِي حَالَةِ الْبُعْدِ نَفْسِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا ... تُقَبِّلُ الْأَرْضَ عَنْكُمْ وَهْيَ رَائِدَتِي

وَهَذِهِ دَوْلَةُ الْأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ ... فَامْدُدْ يَمِينَكَ كَيْ تَحْظَى بِهَا شَفَتِي

قال: فمد يده فقبلتها. وهذا كله كذب وزور، ورسول الله ﷺ قد بلغ الرسالة، وهو في قبره حي ﷺ حياة تليق به، فإن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، لكن يبلغه سلامنا وصلاتنا، يقول ﷺ: «**أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ. قَالُوا: كَيْفَ تُعْرَضُ عَلَيْكَ صَلَاتُنَا - يَا رَسُولَ اللهِ - وَقَدْ أَرِمْتَ[1] ؟! قَالَ: إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ**

(١) أي: بليت.

أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ». فهو ﷺ تُعرض عليه الصلاة ويرد الله عليه روحه، فيسلم على من سلم عليه، صلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، صلى الله وسلم عليه ما غفل عن ذكره الغافلون، وإنما قصدي بهذا أن بعض الناس يتوهم أنه إذا غالى وقال: إن رسول الله ﷺ يُشافي ويُعافي ويجلب الضر والنفع، وإني ذاهب إليه. كما يفعل بعض الناس الجهلة والمبتدعة، قال: أذهب إليه وأخبره أن ابني مريض فيشافي ابني، وأن زوجتي عقيم لعلها تنجب. كل هذا من الخرافات، رسولنا ﷺ عبد، ورسول، مهمته البلاغ من ربه بالوحي، وقد بلغ ﷺ وأدى ما عليه ونسأل الله أن يجمعنا به في الفردوس الأعلى، حتى يقول:

هَذَا الَّذِي جَاءَ وَالأَبْحَارُ مَالِحَةٌ ... فَمَجَّ فِيهَا فَصَارَ الْمَاءُ كَالْعَسَلِ

هَذَا الَّذِي رَدَّ عَيْنَاً بَعْدَمَا فُقِئَتْ ... وَرِيقُهُ قَدْ شَفَى عَيْنَ الإِمَامِ عَلِي

فهو لبركته ﷺ صارت آثاره مباركة، وليس هذا إلا له ﷺ، فلا يأتي أحد ويقول: إن بساطه أو بشته أو ثوبه أو سواكه. هذا للرسول ﷺ فقط، حتى ليس للصحابة ﷺ ولا لأئمة الإسلام، ولم يدّعه أحد من الصحابة ﷺ، إنما هذا خاص بسيد الخلق ﷺ.

علوُّ الهِمة

الهمة العالية إذا وُجِدَتْ في الشخص بوَّأته المنازل العالية، سواء في الدين أو في الدنيا، والله ﷻ أعطانا أصول الهمة في القرآن، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. لأن المطلوب من الإنسان أن يكون أعلى، وميثاقنا ورسولنا ﷺ يقول كما في الصحيح: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنُ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**». فالمؤمن القوي تجده عالي الهمة، لا يرضى من العبادة إلا أحسنها وأخلصها وأصدقها، وكذلك

لا يرضى بالأخلاق الدنيئة، وقد تبارى أهل الحرف وصناع الكلمة في إثارة الهمم وفي قدح العزائم، حتى يقول ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ». يقول الصحابة ﷺ: «حَتَّى فِي الدُّعَاءِ عَلَّمَنَا ﷺ عُلُوَّ الْهِمَّةِ». فلا ترضَ بمجرد الجنة، بل اسأل الله الفردوس «فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَوَسَطَ الْجَنَّةِ وَمِنْهَا تَتَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجِنَانِ». الحديث. وقد سطر بعض الشعراء قصائد في هممهم على اختلاف بينهم، فبعضهم صاحب همة الدنيا، مثل: المتنبي. يريد الدنيا يريد المنصب ويريد الشهرة، فيقول في قصيدة ماتعة رائعة:

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ ... وَحِيداً وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ

وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلامَتِي ... وَمَا ثَبَتَتْ إِلاَّ وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ

تَمَرَّسْتُ بِالآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا ... تَقُولُ: أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ ذُعِرَ الذُّعرُ؟!

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الأَتِيِّ كَأَنَّ لِي ... سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وِتْرُ[1]

فَلا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقّاً وَقَيْنَةً ... فَمَا الْمَجْدُ إِلا السَّيْفُ وَالفَتْكَةُ البِكْرُ[2]

إلى أن يقول:

وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيّاً كَأَنَّمَا ... تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ[3]

هذا مذهبه. لكن الشافعي يخالفه في قصيدة ماتعة رائعة، والشافعي يريد ما عند الله؛ لأنه عالم رباني من مدرسة محمد ﷺ. الشافعي يختلف عن المتنبي، بلا شك أن المتنبي عبقري في الأدب وفي صنع الكلمة وفي إرسال الحرف، ولكن الشافعي ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. فالشافعي يقول:

---

(١) الأتي: السيل. فإذا جاء السيل فلا يرده راد، فإن اعترضه جبل صعده وإن واجه صخراً طمّه وإن مرّ بشجرة اقتلعها.

(٢) أي الموت بالحوادث والأزمات.

(٣) يقول: يكون لك صهيل وجلجلة وصلصلة وزلزلة.

أمْطِري لُؤْلُؤاً - سَمَاء سَرَنْدِيبَ - وَفِيضِي آبَارَ تكرور تِبْرَا
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ خُبْزاً وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا
هِمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ، وَنَفْسِي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرَا

وساروا على ذلك يصفون لك علو الهمة، حتى إن الشوكاني يقول عن نفسه في كتابه (نيل الأرب): إن الذي شحذ همتي بيتان من الشعر. قرأهما وهو في الشباب.

فأحياناً تقرأ بيتاً يوردك الردى، وأحياناً تسمع قافية تشجعك على الخيل، حتى إنهم يرون أن معاوية رضي الله عنه رجع من صفين بعدما كاد يهرب حتى ذكره بعض الناس، وقال: كيف تهرب؟! وابن الإطلابة يقول:

أَبَى لِي شِيمَتِي وَأَبَى حَيَائِي وَأَخْذ الْمَجْد بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَقَوْلِي - كُلَّمَا جَشِئَتْ وَجَاشَتْ -: مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

أما قول:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشِئَتْ وَجَاشَتْ مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكِ لَنْ تُرَاعِي

فهي لقطَري بن الفجاءة، وبعضهم ضبطه قَطْرِي والصحيح أنه قَطَرِي بن الفجاءة أبو نُعامة:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشِئَتْ وَجَاشَتْ مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكِ لَنْ تُرَاعِي[1]
فَإِنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرَاً فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرَاً فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطْوَى عَنْ أَخِي الْخَنَعِ الْيَرَاعِ

(١) يقول لنفسه: لا تهربي، بل جاء وقت الموت فاثبتي.

فالشاهد أن الشوكاني يقول: إن الذي شجعني على طلب العلم والسهر وحفظ المتون بيتان حفظتهما للشريف الرضي- الشاعر المشهور- الذي يقول مخاطبًا نفسه-:

أَقْسَمْتُ أَنْ أُورِدَهَا حُرَّةً ... وَقَاحَةً تَحْتَ غُلامٍ وَقَاحْ

إِمَّا فَتًى نَالَ الْمُنَى ... أَوْ فَتًى زَارَ الرَّدَى فَاسْتَرَاحْ

إما أن أنال المجد أو أزور الردى وأموت، ولذلك نظمت أنا عليها بيتين، فقلت:

إِذَا سَأَلْتَ اللهَ فِي كُلِّ مَا ... أَمَّلْتَهُ نِلْتَ الْمُنَى وَالنَّجَاحْ

بِهِمَّةٍ تُخْرِجُ مَاءَ الصَّفَا ... وَعَزْمَةٍ مَا شَابَهَا قَوْلُ: آحْ

لأن قول: آح. علامة الفتور والبرود والانهزام.

يقولون لعنترة: كيف تغلب الرجال وأنت جسمك جسم الرجال؟! قال: ضع إصبعك في فمي وأضع إصبعي في فمك. وقال: عض إصبعي وأعض إصبعك. ففعلا حتى قال الرجل: آح. فسحب إصبعه وقال عنترة: بصبر ساعة غلبت الرجال. هذه هي الهمة أن تصاول الأحداث وتقف مستعيناً بالله ﷻ؛ لأن من صبر وواصل واستمر، فسوف ينجح بإذن الله ﷻ، حتى إنهم يقولون: لما أسرع الفرس ركبه الملوك، ولما أبطأ الحمار جعلوه للأحمال، حتى يقول الشاعر:

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ ... أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَوْ حِمَارُ

وقد زرنا حديقة الحيوان في أندونيسيا قريباً من (جاكرتا) فوجدنا كل الحيوانات بأشكالها وألوانها؛ الأيل والغزال والفهد والعجماوات والنسور، ولما أتينا إلى الأسد وإذا رجال الأمن واقفون عنده بسياراتهم وإذا هو بارك على مكان مرتفع كأنه على عرش وإذا هو ينظر بعينيه ويحملق في الناس، قلت: حق لك أن تكون ملك الغابة.

ولذلك، فإن الله ﷻ لما وصف المشركين قال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١]. والقسورة: الأسد. ومن أسمائه: القسورة، والليث، والغضنفر، وأسامة، وحيدرة، والهزبر. وأسماء كثيرة، يقولون: إذا عَظُمَ الْمُسَمَّى كثرت الأسماء. ولذلك فالله أعظم من كل عظيم، وله تسعة وتسعون اسماً ﷻ عظيمة كلها جليلة.

وبالمناسبة، فمن أسمائه: حيدرة. حتى إن علي بن أبي طالب ﷺ يسمونه حيدرة الذي يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

فإذا اجتمع الجِدُّ والْجَدُّ فذلك الخير، فالجَد هو الحظ والْجِد هو العمل والسعي والكسب، يقول المتنبي:

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا ... وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمُ لِلْيَومِ سَيِّدَا

يقول: هو حظ من الله أن أعطى سيف الدولة وجعله يفوز على الناس وعلى الملوك بحظ عظيم، لأنه يقول:

هَنِيئاً لَكَ الْعِيدُ الَّذِي أَنْتَ عِيدُهُ ... وَعِيدٌ لِمَنْ زَكَّى وَصَلَّى وَوَحَّدَا

ومطلع القصيدة يقول فيها:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا ... وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا

وهي تدل على الهمة العالية، ويصفه بالبحر وأنه هائج في تقدمه، يقول:

هُوَ الْبَحْرُ خُضْ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِناً ... عَلَى الدُّرِّ وَاحْذَرْهُ إِذَا كَانَ مُزْبِدَا

إلى آخر ما قال، فقصدي أن الْجَدَّ إذا اجتمع مع الْجِدِّ بلغ الإنسان من الرقي مبلغاً عظيماً. وأذكر أن إسحاق بن يونس قيل له: ما النجاح؟ قال: يقوم النجاح

علـى ثلاثة أركان: العمل، ثم العمـل، ثم العمل. مثلما قيل لنابليون: ما هي شروط كسب المعركـة؟ قال: تُكْسَبُ المعركة بثلاثة شروط: بالمال، ثم المال، ثم المال. وهذا من الأجوبة الذكية، وقد مرَّ معنا أخبار كثيرة، لكن أذكر على سبيل المثال أن أبا إسحاق الشيرازي من علماء الشوافع، وهو صاحب (المجموع شرح المذهب). يقـول: والله إنـي كنت أكرر الدرس، قبل أن أشرحـه لطلابي مئة مرة. تفرغ للعلم وحياته كلهـا علم، قال: والله إني كنت أعيد القياس بالقياس ألف مرة. حتى نحل جسمه وصار عالم الدنيا، يقول فيه الشاعر:

تَـرَاهُ مِـنَ الـذَّكَـاءِ نَحِيلَ جِسْمٍ ... عَـلَـيْـهِ مِـنْ تَـوَقُّـدِهِ دَلِـيـلُ

إِذَا كَـانَ الْفَتَى ضَخْمَ الْمَعَالِي ... فَلَيْسَ يَضُرُّهُ الْجِسْمُ النَّحِيلُ

ولذلك فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان نحيل الجسم، لكن انظر ماذا فعل بعمله؟! في الهجرة الأول وفي الجهاد وفي الصدقة وفي الذكر وفي الصلاة، وفي الخطابة وفي الإنفـاق، حتى استحق أن يكون الخليفة بعد النبي ﷺ وسُمِّي بالصديق، وذُكِر وصفه تنويهاً بالقرآن وصار في المرتبة الأولى أفضل الصحابة رضي الله عنهم، فأخباره عظيمة.

والإمام أحمد طاف الأقاليم في طلب الحديث، سافر إلى صنعاء ماشياً وفي طريقـه معه إسحاق بن راهويه يقول: دعنا نمر نأخذ عمرة بالبيت. ماذا يريدون فـي صنعاء؟ يريدون العالـم المحدث الكبير عبـد الرزاق بن همـام الصنعاني، فخرجـوا بنية أن يصلوا إليه في صنعاء، وفي أثناء طريقهم- بين بغداد واليمن- قـال للإمام أحمد: دعنا نمر بالبيت ونعتمر. فمروا بالبيت وهم يطوفون وإذا عبد الـرزاق بن همـام الصنعاني أتى للعمرة وقرَّبه الله لهم فـي مكة، قال إسحاق: يا أحمـدُ، هذا عبد الرزاق قد حضر وقد قـرَّب الله علينا المسافة وسهل علينا. قال أحمـد: لا والله أنـا لا أُبْطِـل نيتي التي خرجـت بها، والله لا أطلـب الحديث عنه، حتـى يعود إلـى صنعاء وأذهب. فلما عاد رجع الإمام أحمـد وسافر لليمن، ومشى

في الطريق وانتهت نفقته واشتغل مع الحصادين يحصد الزرع بأجرة، وذهب بالأجرة وطلب الحديث وواصل التعليم وواصل نشر العلم والفائدة، حتى إنه صار عالم الدنيا.

وقرأت عن ابن حبان المحدث الكبير صاحب الصحيح، يقول: لعلي رويت عن ألفي شيخ، طاف الأقاليم كلها: الحجاز، ومصر، والشام، والجزيرة، واليمن، وخراسان، وما وراء النهر. فروى عن ألفين من العلماء، قال الذهبي: لله در الهمم. لأن هذا يبلغ به أن يطوف على هؤلاء جميعاً ويسجل أحاديثهم ويكتبها، أمر عجيب!.

ومنهم سيبويه، فإنه لما تُوُفي قال أهل السير: عمره كان (٣٧سنة). لكن العبقرية لا تعترف بعمر، بعض الصحابة ﷺ توفي دون الثلاثين، لكنه ترك علماً، قدم جهاداً، قدم خيراً ونفعاً، معاذ بن جبل رضي الله عنه عمره (٣٢سنة) في بعض الروايات وهو قائد العلماء يأتي أمام العلماء يوم القيامة برَتْوة، أي: رمية حجر. يقودهم إلى جنات النعيم، هذه هممهم التي سجلوا بها وأثّروا بها في الناس، البخاري يقول: ما كتبت حديثاً في الصحيح- عند تبييض- الحديث إلا توضأت وصليت ركعتين واستخرت الله. توضأ عند كل حديث واستخار الله وصلى ركعتين! همة تنطح الثريا وعزم نبوي يزعزع الجبال، فنحن بحاجة إلى همة، يقول الشاعر:

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرَاً أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تُدْرِكَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا[1]

يقول شوقي:

وَمَا نَيْلُ المطالب بِالتَّمَنِّي ... وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِلابَا

فالمسألة مسألة المغالبة والمصارحة هي لك أو لأخيك أو للذئب، فالسوق مناهبة، فلا تظن أن من نام سوف يدرك المجد، بل يدرك المجد من قام حتى إن المتنبي يقول - عمَّن يمدحه -:

(١) الصبر: نوع من الثمر المر.

إِذَا تَغَلْغَلَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِي طَرَفٍ مِن مَجدِهِ غَرِقَتْ فِيْهِ خَواطِرُهُ

وفي بيت آخر يقول:

قَلِيلُ سُهَادِ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يُـوَرِّقُـهُ فِيمَا يُشَـرِّفُهُ الْفِكْرُ

يقول: لا ينام مثلما ينام الناس، تراه يتقلب في المنام يفكر في أشياء ومشروعات يفتتحها، يفكر في خير في النهار، يفكر في أمر يحدثه، فيه نفع لنفسه وللناس، يكون الله ﷻ عنك راضياً وتكون أنت راضياً عن نفسك ويكون من حولك راضين عنك، وتقدم عملاً نافعاً لغيرك، هذا هو النجاح، فيمدح الممدوح هذا بأنه قليل النوم يفكر فيما يرفعه وفيما يُعلي قدر الإنسان، وترى الناس سواسية من لحم ودم لكل واحد عينان ولسان وأذنان وشفتان ورجلان ويدان، لكن هناك الهمة تمر الهمة مر السحاب ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨].

حتى إن ابن الجوزي قال: إن بعض الناس يرضى بأن يحفظ قصار المفصل؛ قصار السور. وبعضهم يقول: جزء يكفيني. وبعضهم لا يرضى إلا بالقرآن كله، وبعضهم يقول: القرآن والقراءات السبع معها، وبعضهم يحفظ أحاديث الصحيحين وغيرها وغيرها، فيزداد من الخير. ولذلك فدرجات الجنة بحسب الهمم، فنسأل الله الهمة العالية.

المنظومات

المنظومات في العرب غير القصائد وهي الأراجيز، والأرجوزة بحر خفيف تُنظم فيه العلوم والفنون، ولذلك لخفته يُسمونه: حمار الشعراء. كل ينظم عليه، حتى إن ابن مالك نظم عليه الألفية في النحو، وقال:

قَالَ مُحَمَّدٌ هُوَ ابْنُ مَالِكِ
أَحْمَدُ رَبِّيَ اللهَ خَيْرَ مَالِكِ

وبعض الشعراء يستخدمه في قصائده ليس نظماً، لكن لخفة هذا البحر بحر الرجز،

ويأخذونه في المعركة، فالأبطال إذا برزوا لخفة هذا البحر يستخدمون أبياته في المعركة، فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَه

أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ ... .

وهذا أحدهم يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَنَهَّبُ ... .

ويقول الأحنف بن قيس: إنه كان في خراسان يجاهد في سبيل الله، فأخذ الراية وقال:

إِنَّ عَلَى رَاعِي اللِّوَاءِ حَقًّا ... أَنْ يُخْضِبَ الصَّعْدَةَ أَوْ تَنْدَقَّا

يقول: إن الواجب على القائد إذا أخذها أن يأخذها بحقها، إما أن يخضب الصعدة (الحربة) أو تندق في يمينه، وإن لم يقم بهذا الحق، فلا يحق له أن يكون قائداً، ومن أحسن المنظومات المقصورة لابن دريد التي يقول فيها:

يَا ظَبْيَةً أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْمَهَا ... تَرْعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا

جاء فيها بأبيات من الحكمة ومن الفهم ومن العمق، حتى يقول فيها:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ ... فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَى

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ ... وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَا

فجاء بهذه الأمثال والحكم وضمنها مقصورته، وبعض الأقران حسده على منظومته؛ لأنها انتشرت بين الناس. وأحدهم عارضه، فقال:

مَنْ طَبَخَ الدِّيكَ وَلَمْ يَذْبَحْهُ ... فَرَّ مِنَ الْقِدْرِ لِحَيْثُ انْتَهَى

كي يُضحِك الناس عرَّض بمقصورة ابن دريد، وهذا معروف ولا يحتاج إلى حكمة، فالإنسان إذا أخذ الديك وهو حي ووضعه في القدر يفر.

مَنْ دَخَلَتْ فِي عَيْنِهِ مِسَلَّةٌ [1] ... فَسَلْهُ مِنْ سِعَتِهَا عَنِ الْعَمَى

وَحَمْلُ تَمْرٍ مِنْ خُمُولِ بِرِّهِ ... أَفْضَلُ لِلْمِسْكِينِ مِنْ حَمْلِ النَّوَى

يقول: التمر أفضل من النوى، أراد أن يسخر من ابن دريد.

ويقول ابن مالك في الألفية:

وَالأَصْلُ فِي الأَخْبَارِ أَنْ تُؤَخَّرَا ... وَجَوَّزُوا التَّقْدِيمَ إِذْ لا ضَرَرَا

أي: الأصل في الخبر مجيئه بعد المبتدأ، نحو: محمد كريم. كريم خبر فلا تقدم الخبر على المبتدأ، وجوزوا التقديم (إذ لا ضررا)، كأن يتقدم الجار والمجرور نحو: في البيت محمد. فإن محمداً هنا صار مبتدأ مؤخراً، فقال أحدهم ينظم:

وَالأَصْلُ فِي الأَخْبَازِ أَنْ تُطَمَّرَا ... وَجَوَّزُوا التَّرْقِيقَ إِذْ لا ضَرَرَا

فالأصل في الخبز أنك تضعه على الجمر، ولكن لو وضعت قليلاً من العجين، فلا بأس بذلك.

أحدهم اسمه عامر الأنبوطي ردَّ على ابن مالك، فقال:

يَقُولُ عَامِرٌ هُوَ الأَنْبُوطِي ... أَحْمَدُ رَبِّي لَسْتُ بِالْقَنُوطِ

الأصل في الأخباز أن تُقَمَّرَا ... وَجَوَّزوا التَّرْقِيقِ إِذْ لا ضَرَرَا

وَصُبَّ شَاهٍ مِنْ عَلَى الْبَرَّادِي ... وَاصْبِبْ لَهُ فِي سَاعَةِ الْمُرَادِ

وَكَمِّهُ وَغَطِّهِ بِالْمَنْشَفَهْ ... وَاصْبِرْ لَهُ فِي سَاعَةٍ وَاسْتَعْلِفَهْ

---

(١) أي: إبرة.

هـذا كله تضييع للوقـت وإضحاك للإخـوة، حتى تستمـر النفوس على طلب الحق.

بعض الساسة كتب تقريره السياسي الذي رفعه لدولته بأراجيز، فمثل اليمن لـدى دول عدم الانحياز الإمـام أحمد بن حميد الدين رفع تقريـره بأرجوزة؛ لأن اليمـن لم تكن علـى وفاق مع جمال عبد الناصر، بينهـم خلاف، وكان جمال معه تيتو ونهرو، فيقول ممثل اليمن:

هَـاتِ التَّحِيَّـهْ وَكَـذَا سَـلامِـي ... أَرْفَـعُـهُ لِـحَـضْـرَةِ الإِمَـامِ
وَالْـعَـالَـمُ الـثَّـالِـثُ فِـي نِـزَاعِ ... مُـخْـتَـلِـفُ الأَهْـوَاءِ وَالأَطْـمَـاعِ
قَـدْ دَعَـا إِلَـى اجْـتِـمَاعِ النَّاصِرِ ... مِـنْ أَجْـلِـهِ تِيتُو وَعَبْدِ النَّاصِرِ
يُـصَـارِعُ الْـقُـنْـبُـلَـةَ الـذُّرِيَّـهْ ... بِـجَـزْمَـةٍ فِـي رِجْـلِـهِ قَـوِيَّـهْ
وَفِـي الْـوُفُـودِ غَـايَـةٌ عَـيْـنِـيَّـهْ ... أَظُـنُّـهَـا مِـنْ أُسْـرَةٍ غَـنِـيَّـهْ
تَـلْـمَـحُـهُ الأَبْـصَـارُ بِـالـتَّـوَالِـي[1] ... وَبِـالْـخُـصُـوصِ مِـنْ سَـفِـيرِ مَـالِـي

وأذكر مرة أني نظمت قصيدة على ألفية ابن مالك وقد سمعها بعض العلماء والفضلاء، قلت فيها:

وَلا يَـجُـوزُ الابْـتِـدَا بِـالـنَّـكِـرَهْ ... وَمَـنْ أَجَـازَ ذَاكَ فَـهْـوَ بَـقَـرَهْ

فإن ابن مالك يقول:

وَلا يَـجُـوزُ الابْـتِـدَا بِـالـنَّـكِـرَهْ ... مَـا لَـمْ تُـفِـدْ كـ: عِـنْـدَ زَيْـدٍ نَـمِـرَهْ

لكـن العلماء استخدموا بحر الرجز في نظم العلوم، حتى إن الصنعاني نظم بلـوغ المـرام، وأنا ضد أن يُنْظَمَ كلامه ﷺ لأن كلامه أجمل من كل كلام وأجمل مـن كل شعر، وأجمل من كل أدب وأجمل مـن كل خطابة، كلامه ﷺ الذي يقول:

(١) أي: ممثلة غانا، أو غينيا.

«أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ». أفصح من نطق بالضاد، كيف تنظم كلامه ﷺ؟! لكن هذا اجتهد حتى يحفظ، فالصنعاني نظمها، فيقول:

حَمْدَاً لِمَنْ بَلَّغَنَا الْمَرَامَا ... وَزَادَنَا مِنْ فَضْلِهِ إِكْرَامَا

ثُمَّ صَلاةُ اللهِ تَتْرَى مَا سَرَى ... بَرْقٌ عَلَى طَيْبَةَ أَوْ أُمِّ الْقُرَى

مَعَ السَّلامِ يَغْشَيَانِ أَحْمَدَا ... وَآلِهِ الْمُسْتَثْمِرِينَ الرُّشْدَا

وبدأ ينظم، ويتم المتن في بلوغ المرام، حتى يقول:

أَمَّا إِدَارُ الْمَا عَلَى الْمَرَافِقِ ... فَالدَّارِ قَدْ ضَعَّفَهَا وَالْبَيْهَقِي[1]

وَضَعَّفَ الْكُلُّ حَدِيثَ الْبَسْمَلَهْ ... عَلَى الْوُضُو وَضَعَّفُوا مَنْ نَقَلَهْ

لأن في الحديث إدار الماء على المرافق، وأنا رددت عليه، بعدما قرأت صحة الحديث في السند، قلت:

وَصَحَّحَ الْبَعْضُ حَدِيثَ الْبَسْمَلَهْ ... وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ - أَيْضَاً- وَصَلَهْ

فهم ينظمون العلوم في منظومة؛ حتى يحفظها طالب العلم، فينظمون النحو والفرائض وأصول الفقه، ونحو ذلك.

والحريري له منظومة في النحو جميلة نحو (٤٠ بيتًا) يقول -من ضمن أبياتها-:

وَالْحَرْفُ مَا لَيْسَ لَهُ عَلامَهْ ... فَقِسْ عَلَى قَوْلِي تَكُنْ عَلاَّمَهْ

لأن الاسم له علامة فيدخل عليه الجر والندا وأل، وللفعل علامة على الماضي والمضارع والأمر، بابها في باب النحو، لكن الحرف ليس له علامة.

---

(١) الدار، هو: الدارقطني.

وأذكر أن طالباً حفَّظَهُ أبوه بعض الأبيات هذه كان في الابتدائي فدخل مفتش عندهم، فقال المفتش للطالب: كيف تُفَرِّق بين الحرف والفعل والاسم؟ فقال الطالب:

وَالْحَرْفُ مَا لَيْسَ لَهُ عَلامَهْ فَقِسْ عَلَى قَوْلِي تَكُنْ عَلاَّمَهْ

فقال المفتش: سوف أقيس على قولك، وتكون علامة في المستقبل إن شاء الله.

فبعضهم يحفظ العلوم، حتى يقول أحد الناظمين في بعض مسائل النحو:

كَانَ وَأَضْحَى ثُمَّ صَارَ أَصْبَحَ لَيْسَ وَأَمْسَى انْفَكَ زَالَ بَرِحَا

وهذه كان وأخواتها، هذا في نظم النحو.

وأحسن من نظم النحو صاحب الخلاصة ابن مالك الأندلُسِي، فإنه فُتِحَ عليه في هذه وأُوتِي قبولاً من صحة نيته، فكان عابداً زاهداً والله عزوجل نسب له القبول في هذه المنظومة، جاء بأشياء فيها من الولاء لله ولرسوله ﷺ حتى يقول:

تَرْفَعُ كَانَ الْمُبْتَدَا اسْمَاً وَالْخَبَرْ تَنْصِبُهُ كَكَانَ سَيِّداً عُمَرْ

يقولون: إن بعض الشيعة سمع البيت وشرحه، فقال:

تَرْفَعُ كَانَ الْمُبْتَدَا اسْمَاً والَّذِي يَلِي كَكَانَ سَيِّداً عَلِي

فيريد أن يأتي بهذا، وعلي رضي الله عنه فاضل وعمر رضي الله عنه فاضل رضي الله عنهم جميعاً وجمعنا وإياهم في دار الكرامة، ما دام الله رضي عنهم وزكَّاهم وعدلهم، وصاحبوا رسول الله ﷺ فرضي الله عنهم وأرضاهم، ويقول ابن مالك يرد على المعتزلة الذين يقولون: إن الله لا يُرى في الآخرة.

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا فَقُولُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فإن الزمخشري قال: لن تراني، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وأهل الاعتزال يرون أن رؤية الله لا تكون في الدنيا ولا في الآخرة، والسنة يرون أن الله لا يُرى في الدنيا ذلك أنه يقول لموسى عليه السلام ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾. لكن في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقال عز وجل عن أعدائه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما حجب عن أعدائه دل على أن أولياءه يرونه. فنسأل الله أن يرينا وجهه الكريم في جنات النعيم، فيقول ابن مالك:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا ... فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

مؤبداً دائماً في الدنيا والآخرة. فارده واعضد قول أهل السنة؛ لأن لن لا تفيد التأبيد في النفي، لكنها تفيد النفي حتى أمر مؤقت، فاعضد سواه وهو قول الحق، فانظر كيف نظم هذا في منظومته؛ لأن منهجه كان سديداً في ذلك، فآتاه سعة وقبولاً في هذا الأمر.

وأذكر من المعاصرين ممن أجاد النظم الشيخ حافظ الحكمي وهو علامة نابغة إلى درجة العبقرية، مات وعمره (٣٧عاماً) وألف ما يقارب أربعين كتاباً، ومن ضمن نظمه في العقيدة، قوله:

وَالْمَوْتَ فَاذْكُرْهُ وَمَا وَرَاءَهْ ... فَمِنْهُ مَا لِأَحَدٍ بَرَاءَهْ

وَإِنَّهُ لِلْفَيْصَلُ الَّذِي بِهِ ... يَنْكَشِفُ الْحَالُ فَلا يَشْتَبِهِ

خُذْ وَاضِحَ الْحِلِّ وَدَعْ مَا اشْتَبَهَا ... مَخَافَةَ الْمَحْذُورِ يَا مَنْ فُقِهَا

وَازْهَدْ بِدُنْيَاكَ وَأَقْصِرِ الْأَمَلْ ... وَاجْعَلْ لِوَجْهِ اللهِ أَجْمَعَ الْعَمَلْ

لا تَحْتَقِرْ شَيْئَاً مِنَ الْمَآثِمِ ... وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِمِ

وَمَنْ لِقَاءَ اللهِ قَدْ أَحَبَّا ... كَانَ لَهُ اللهُ أَشَدَّ حُبَّا

وَعَكْسُهُ الْكَارِهُ فَاللهَ اسْأَلِ ... رَحْمَتَهُ فَضْلاً وَلا تَتَّكِلِ

ثم يقول:

وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنَ الْجِنَانِ ... أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرانِ

إِنْ يَكُ خَيْرَاً فَالَّذِي مِنْ بَعْدِهِ ... أَهْوَنُ عِنْدَ رَبِّنَا لِعَبْدِهِ

وَإِنْ يَكُنْ شَرّاً فَمَا بَعْدُ أَشَدْ ... وَيْلٌ لِعَبْدٍ عَنْ سَبِيلِ اللهِ صَدْ

وينظم المتن ويأتي بالأحاديث بنصها وفصها بسلاسة أعذب من شهد العسل إذا مزجتها بماء الغمام بارداً، ثم مزرته مزاً، وهذا ميزة الذكاء في هذا العالم (٣٧سنة)، حفظ القرآن في شهر، شهد له العلماء زملاؤه، فقالوا: نشهد أنه كان يقرأ جزءاً في النهار فيحفظه ويصلي بنا في الليل في التراويح وهو شاب ولا يخرم حرفاً واحداً، وكان يحفظ المنظومات والقصائد في ذهنه، وكان يفتي ويرد على المسائل، ومات وهو في (٣٧سنة) وقد أصبح عالماً من أكبر العلماء، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

كان ﷺ جالساً في المسجد، بعد صلاة العصر، بعد صلح الحديبية، والصلح ألا يُنقض العهد لا من الطرف هذا ولا من الطرف هذا، ورسول الله ﷺ على الوفاء وهو أصدق الناس وأوفاهم، وإذا برجل أناخ جمله في طرف المسجد اسمه عمرو بن سالم، وهو من خزاعة؛ لأن خزاعة اتفقوا مع الرسول ﷺ وبكر مع قريش، ونزل وقال:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيكَ الْأَتْلَدَا

فَانْصُرْ - رَعَاكَ اللهُ - نَصْرَاً مُزْبِدَا ... وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا

فِي فَيْلَقٍ مِثْلَ الصَّرِيمِ سَرْمَدَا ... إِنَّ قُرَيْشَ أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا

وَنَكَثُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا ... وَقَتَلُونَا رُكَّعَاً وَسُجَّدَا

قال ﷺ: «نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ». ثم نظر ﷺ في السحاب فاستنزل النصر من الله، فنصره الله نصراً مؤزراً، وفي الطريق أنزل عليه، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣]. نصرٌ ما سمع التاريخ بمثله، نصر أوقف الزمان، نصر صفقت له الدنيا، وتفتحت له أبواب السماء، نصر سجله ﷺ أبد الدهر، وكان ابن رواحة رضي الله عنه يقول -في مجلسه ويُنشد بين يدي الرسول ﷺ-:

وَاللهِ لَوْلا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا

قال ﷺ: **اهتدينا.**

وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

قال ﷺ: **صلينا.**

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

قال ﷺ: **علينا.**

وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

قال ﷺ: **لاقينا.**

فهذا من بحر الرجز البحر الخفيف، الذي يتناشده الناس، وعسى الله عز وجل أن تُنْظم منظومة في الآداب، كما نظم بعض العلماء كابن شرف وغيره منظومة في الآداب والأخلاق، وأنا أفكر في ذلك، لكن الهمم صغرت على الناس وشُغِل الناشئة والشباب بسبب ما جدَّ في هذا العصر، فإذا الإنسان أقبل بهمة وبحافظة قوية وأقبل على المعرفة والعلم فتح الله عليه، وترون سلفنا كيف سجلوا أروع

القصص في حفظ المتون وفي حفظ المنظومات وحفظ الأشعار، حتى إن لبيد لما دخل على النعمان بن المنذر يقول:

وَنَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَهْ ... وَمِنْ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَهْ

الْمُطْعِمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدَعْدَعَهْ ... وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَهْ

إلى أن انتهى من القصيدة.

obeikandl.com